مبادئ علم
تفسير القرآن

المؤلف الشيخ
إبراهيم القديم

المراجع والمقدم
السيد مرتضى جمال الدين

مبادئ

علم تفسير القرآن

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ

.....

اسم الكتاب: مبادئ علم تفسير القرآن
المؤلف: الشيخ إبراهيم القديم
المراجع والمقدم: السيد مرتضى جمال الدين
مصمم الغلاف: السيد هيثم يوسف
الناشر: لجنة السيد الأمجد ـ الكويت

.....

مبادئ
علم تفسير القرآن

تأليف

الشيخ إبراهيم القديم

مراجعة وتقديم

السيد مرتضى جمال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إهداء عام

إلى المتلهفين لفهم مبادئ علم تفسير القرآن الكريم

أُهدي هذا الكتاب

إهداء خاص

إلى الجراءة التي حاولت وما زالت تحاول عودة حق تفسير القرآن إلى

أهله المخصوصين بالنص الإلهي

إلى أستاذي السيد مرتضى جمال الدين

أُهدي هذا الكتاب

مقدمة السيد

مرتضى جمال الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى وسلام على عبادهِ الذين اصطفى
محمد وآله ذوي النهى.

وبعد..

فيما أنا أجِدُّ في بيان درس (علم التفسير)، وحيث وصلت إلى نهاية فصلهِ الأول، لاح لي طالب انساب بهدوء من بين الجموع، صامتاً يستمع بخشوع... حتى إذا طالبتُ طلبتي بتطبيقاتٍ قرآنية على أساس قواعد أهل البيت، فجاء بعضهم بورقةٍ أو ورقتين، والمجدّ منهم بثلاث أو أربع، وإذا بفضيلة الشيخ إبراهيم القديم يأتي بمقالةٍ مبسوطة، وعليها تقارير مسبوكة، وبقلمٍ سيال يقطر عذوبة، مقرراً درسي بجميل أسلوبه، مضيفاً له شروحات مدروسة، فعرفت فيها نبوغه.

ثم أعطاني كتاباً (مبادئ علم تفسير القرآن).

فوجدتُ فيه سلاسة العبارة، ورجاحة الفكرة، وانسيابية السياق، مرَّ بمصطلحات قرآنية فأعطى حقها، ذاكراً بعض مناهج التفسير، واصفاً حدها، ثم عرج على إشكالية لازمت علماء التفسير وهي التفريق بين التأويل والتفسير، فأعطى جهده من التحقيق والتنظير، ثم ختمها بقواعد التفسير مما استفاده من المقصر الفقير، فأجاد فيما أفاد، وأثمر بعد الزرع الحصاد، أخذ الله بيدهِ إلى السداد والرشاد، ووفقه لخدمة المظلومين في كل بلاد، رافعاً أعلام النصرة في كل وادٍ، ليكون له ذخيرة ليوم المعاد.

المتعـــــلم من أئمة التعليم وخــادم شريعة سيد المرسلين

السيـــــد مرتضى جمـــــال الدين

صبيحة يوم الأحد ٢١/ ١/ ٢٠١٨م

٤جمـــــادى الأولى ١٤٣٩هـ

كربـــلاء المقـــدسة

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين.

إن المتقصي للظروف الإنسانية التي يمر بها المجتمع الإنساني حالياً لا يصعب عليه وعي مدى الجفاء الذي يعيشه في التعامل مع أعظم رسالات وحي السماء (القرآن)، فما أسلفتهُ إغراءات الحضارة الليبرالية الاقتصادية وثقافة الإباحية من استغلال للنزعات، ومكامن التوق التي تبلورت في ألف غطاء وغطاء من المفردات والمشاريع الجذابة، جعلت طور إفرازاتها الفاسدة يتعدى مرحلة تدمير الذات والهوية للإنسان ليصل إلى مرحلة التطرق إلى ترك بصمات الشك والإنكار في مرتكز المنظومة الكونية وخزانة الأسرار الإلهية لديه.

ومما يؤسف أن عملها ما زال يتوّج ويروّج على يد تيارات كُتل ثقافية داخل الأوساط الاجتماعية، من دون أيِّ مقابل أو عائد مردود إليها، فقط النزعة الظلمانية نحو مصطلح الديمقراطية والحرية والعلمانية

ـ وغيرها من مفردات ـ هي من يحركها، ويجعلها تستبد وتتغطرس حتى على مرجعية أعظم دستور سماوي لها وهو القرآن.

فليس غريباً أن تجد القرآن اليوم مهجوراً إلا على القبور وفي مجالس الفواتح، وليس غريباً أن يفقد الإنسان العربي المسلم الذي خوطب به بلسان لغته أبسط مفاهيم التعاطي والتفاعل معه، كفهم ظاهر منصوصته مثلاً.

ولو أردنا التعبير عن المعنى الدقيق لمأساة تعاملنا مع القرآن اليوم فليس هناك أفضل من مصطلح الإعراض الذي سبب لنا المعيشة الضنك، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

وعلى أي حال، إن أفضل مشاريع العودة إلى مكنون الفطرة الإنسانية، وأبلغ مخرج لنا من الظلمات الحالكة إلى النور، تتمثل في تفعيل طاقات منهج التعامل مع القرآن للاستفادة من مضامينه مع الواقع المتحرك باستمرار؛ لأنه المورد الوحيد الحاوي لكل شيء، الذي لا ينضب أبداً إلى يوم القيامة.

---

(١) سورة طه: (١٢٤).

وأول خطوة تدعم إمكانية تحقق المهمة الأصلية له في تكييف مضمونه مع الواقع الإنساني تبدأ من محاولة فهم نصوصه بعيداً عن فوضوية معايرته أو موازنته على صعيد استقلال العقل أو التجربة الحسية أو غيرهما ؛ لأن العقول البشرية مهما تجوهرت والتجربة مهما دقت يبقى قصورهما واضحاً وجلياً أمام فهم مكنوناته.

والواجب أن تكون محاولة الانطلاقة نحو فهمه مجبولة على تفسير معصوم له قابلية البيان والكشف عن وجوه مفاهيمه ورموزه ؛ وذلك لضمان قطعية الأرصدة المخرجة منه وعليه. فأيّ سعي للحيلولة بينه وبين مبينه ومفسره الحقيقي سيجعل عملية فهمه تبوء بالفشل الذريع في مخرجاتها.

ومما لا شك فيه، التفت العديد من الجهود إلى أهمية المرجعية المعصومية للقرآن منذ زمن ؛ ولكن الظروف والأحوال، وشخصية الفرد القائم على صياغتها، وغيرها من عوامل كالقواعد المشتركة بين العلوم، لم تتوانَ عن التأثير في مفهوم دلالات آياته، فتمثل أغلب مخاض عملياتهم بولادة تفاسير بأنماط وأشكال متنوعة ؛ لأن قواعدها

جُذرت فوق أرضية لا تمت بأدنى صلة مع أصالته، وثقله الذي أمرنا بالتمسك به.

وهذا الأمر واضح عند المفسر المبتدئ أو الإنسان الطامح، أو حتى عند المهتم لفهم آيات القرآن، فحينما يتناول أحدهم ما خلفه لنا تراث الفكر الإسلامي من تفاسير، فإنه لن يجد في أغلبها روحية الأمر الرسالي الذي أمر بالتمسك بهما معاً، وقطع بأنه لا سبيل لفهم أحدهما من دون الآخر: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[1]؛ بل سيجد المعاني السطحية الجافة التي تنفّر الناظر وتبعده عن القرآن أكثر مما تجذب كيانه نحوه، أو تسترق روحه بالتعلق أكثر وأكثر في التقصي عن وجوه معاني آياته.

فهذه الحقيقة قد تلمستها في بداية شروعي لتعلم علم تفسير القرآن، التي كان الهدف منها زيادة تدبر آياته، ولم أستفد منها إلا الارتباك والاضطراب لتضارب المعاني التي يوردها هذا وذاك في تفسيره.

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ص٤١٥ ك/الإيمان والكفر ح١.

وبعد مدة ليست ببعيدة أنعم الله عليّ قراءة علم تفسير القرآن عند سماحة السيد مرتضى جمال الدين[١] في مدينة كربلاء، وهي وإن كانت مدة قصيرة إلا أنني فُتنت بصياغة قواعده الأهل بيتيه منذ أول لحظه.

فحركته الجادة[٢] في تقعيد وإعادة صياغة قواعد التفسير المنتزعة من رواياتهم عليهم السلام ـ ومن دون أن تتقاطع مع ركائز المعرفة العلمية والدينية خصوصاً ـ ضمنت عدم ضياع الفرد، ووقوعه في تيه مشاهدة كثرة الاحتمالات والوجوه الدلالية للآيات.

---

(١) هو المعاصر سماحة الأستاذ السيد مرتضى عبد الأمير جواد أحمد جمال الدين. طالب بحث خارج، حاصل على بكالريوس كلية الشريعة، ماجستير علوم القرآن وتفسيره، بكالريوس علوم حياة، وأستاذ في الحوزة العلمية بحرم الإمام الحسين عليه السلام، له أكثر من ٣٠ مؤلفاً. ومن أهم أطروحاته: صياغة القواعد التفسيرية للقرآن من خلال الروايات الأهل بيتية. وسوف نتطرق لجزء من أعماله في نهاية هذا الكتاب.

(٢) لا أقول بأن خطوته الجريئة هي السباقة أو الأولى في هذا المضمار، فهناك محاولات عديدة من قبل الأعلام والمفسرين في عرض جملة القواعد التفسيرية من أصولها؛ كما جاء في كتاب البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم البحراني (ج١ ص٧٣ ب١٧/ في ما ذكره الشيخ علي بن إبراهيم في مطلع تفسيره)، وغيره. غير أن الأمر كما أشرت إليه، الفاصل الزمني جعل المحاولات السابقة إما أن تكون كلية يشوبها الغموض ولا تفي بغرض الوصول إلى فهم جميع النصوص، أو تعيش في ضمن منظومة محددة بسبب تكييف تفاصيلها تحت أحوال وظروف خاصة، هذا بالإضافة إلى حاجة الكثير منها إلى صياغة واضحة تبرزها إلى الواقع الاستعمالي على نحو يلائم متطلبات ومستويات الفهم العصرية.

فعلى الرغم مما خلفه لنا المفسرون من جهود في ذلك إلا أن جراءته ـ في الوقت الحالي ـ جاءت محاكية لحاجة الفرد العصري، ومراعية لمستوى فهم وإدراكات عقله.

فمما لا شك فيه، أن البعد الزمني وتغير الظروف والأحوال ـ وغيرها من أمور ـ جعلت المحاولات السابقة في تفسير القرآن محاطة بهالة من الغموض في قواعدها، وفي آلية عملية تفسيرها.

ولا أقول بأن محاولاتهم لم تعد تعني لنا شيئاً، لا والله، فلولا جهودهم المثمرة لم نستطع الوصول إلى ما نحن عليه الآن؛ ولكني أقول بأن حاجات العصر استدعت لمثل هذا الدور للمحافظة على أصالة الشأن العلمي ومكانة الصرح الديني لا غير.

ولم أرغب بترك هذه التجربة تمر عليّ مرور الكرام، فحاولت تسطير هذا الكتاب ـ المقتضب ـ لتكون مباحثه مجرد مبادئ تمهيدية، تغني القارئ الوقوف على حقيقة مناهج علم التفسير، والفروقات الجوهرية بينها، وتكسبه نظرة جادة مختصرة في أساليبها، وتبين له العديد من نكات المقام التي انطوت حول هذا العلم.

ومن أجل ذلك فقد انتظمت مباحثه في مطالب هي:

المطلب الأول: معجزة القرآن الخالدة.

المطلب الثاني: المعصوم عليه السلام هو المفسر للقرآن.

المطلب الثالث: تعريف التفسير ونشأته.

المطلب الرابع: مناهج تفسير القرآن.

المطلب الخامس: التفسير والتأويل.

المطلب السادس: تفسير القرآن عند العرفاء.

المطلب السابع: أصالة قواعد التفسير.

وفي الختام أرى من اللازم عليّ تقديم الشكر لسماحة الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين، الذي أضاف الاحتكاك معه إشراقة جديدة في رصيد فهمي لآيات القرآن، وأسأل الله ـ أنا العبد الحقير ـ له مزيداً من التوفيق والعطاء في نشر علوم محمد وآله عليهم السلام، وأرجو منه ألا ينساني في مظانّ الإجابة من خالص دعائه، كما أني لن أنساه في تلك الموارد الشريفة من الدعاء له ولكل من له فضل عليّ.

المؤلف/ الشيخ إبراهيم علي القديم

كربلاء المقدسة ١٤ـ٤ـ١٤٣٩هـ

المطلب الأول:

معجزة القرآن الخالدة

إنَّ بقاء كتاب لأكثر من ألف وأربع مئة سنة بمضامينه العالية ومعلوماته الدقيقة من دون أن يطاله التبديل أو التغيير أو التحريف، ومن دون أن يندثر وإن كان معجزة، فمعاجز الأنبياء اندثر تأثيرُها؛ قد أثار دهشة معاصريه لدى المسلمين وغير المسلمين فطفقوا يبحثون عن إجابة ذلك.

من الطبيعي أن تتناسب معجزة النبوة مع عصرها، فكما أن السحر وصل لذروته في زمن نبي الله موسى عليه السلام، فأعطاه الله عز وجل العصا واليد البيضاء، وفي عصر نبي الله عيسى عليه السلام وصل الطب إلى أوج تطوره، فأعطاه الله عز وجل معجزة شفاء المرضى وإحياء الموتى... جاءت ـ وفق هذه القاعدة المُسلَّم بها ـ معجزة نبينا الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإعجازها البياني متحدية فن الفصاحة والبلاغة اللذين بلغا في عصر التنزيل ذروتهما عند العرب[1].

فقد قال ابن السكيت لأبي الحسن عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطب؟ وبعث محمداً ـ صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء ـ بالكلام والخطب؟

فقال أبو الحسن عليه السلام: «إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله بعث

(١) حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٢٧.

عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجة عليهم.

وأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام ـ وأظنه قال: الشعر ـ فأتاهم من عند الله من واعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم»[(١)].

أضف إلى إعجاز[(٢)] القرآن البياني الذي رسم له الخلود شموله وإحاطته ببيان كل شيء، واهتمامه بتقديم منهج متكامل الأبعاد، متسق مع الفطرة، وبإعجاز كذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[(٣)].

والنصوص التي تشير إلى ذلك غير قليلة، وإليك جملة منها:

١ـ الإعجاز التاريخي في وجه الأخبار عن الحوادث الماضية والأمم الخالية، حيث أُوردت قصصهم منزهة عن كل خرافة وكفر، وعن كل

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٢٤ ك/ الحجة ح٢٠.

(٢) الإعجاز هو: «أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يَخْرُجَ عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته». [التعريفات ـ الشريف الجرجاني: ص١١٢].

(٣) سورة النحل: (٨٩).

ما يمس بقدسية أنبيائه عليهم السلام، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين﴾[١].

٢ـ الإعجاز في عرض القوانين الحقوقية العادلة، ﴿إِنَّ اللّـهَ يَـأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾[٢].

٣ـ الإعجاز في النظام التربوي والأخلاقي، ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْـهُ أُمُّـهُ وَهْنًـا عَـلَى وَهْـنٍ وَفِصَـالُهُ فِي عَـامَيْنِ أَنِ اشْـكُرْ لِي وَلِوَالِـدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِير﴾[٣].

٤ـ الإعجاز في بيان وجه العلم بالمغيبات التي بعدت عن عقول البشر، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾[٤].

وغيرها من أمور تضمنها جعلته محط دراسة واهتمام ليس عند المسلمين فحسب، بل وحتى عند الغرب الذين اهتموا

(١) سورة يوسف: (٣).

(٢) سورة النحل: (٩٠).

(٣) سورة لقمان: (١٤).

(٤) سورة الجمعة: (٨).

بدراسته وتحليله لما رأوا ما انطوى عليه من رصانة وحصانه وإبانة وتبيان لكل شيء[١].

فإعجازه في جميع ما اكتنفه من مضامين وألفاظ ومعان وتراكيب وعلوم ومعارف لم يأتِ من أجل تحصيل الصدق واليقين بنبوة النبي الأعظم خاتم الأنبياء والمرسلين ـ النبي محمد ﷺ ـ، أو من أجل الدلالة على ارتباطه ﷺ بعالم الغيب وأنه المبعوث من قِبل الله ﷻ فقط؛ بل تضمن ـ هذا الإعجاز بالإضافة إلى ذلك ـ الحصانة الذاتية من كل تحريف وتزوير ليُقدِّر له البقاء مع الشريعة الخاتمة إلى ما شاء الله ﷻ.

فنُبواءت الأنبياء السَّابقين للنبي الأعظم محمد ﷺ لما كانت مختصة بأزمانهم اقتضت الحكمة أن تكون معاجِزُهُم مقصورة الأمد، أما الشريعة الخالدة لما فيها من عنصر الديمومة والبقاء إلى يوم القيامة اقتضى أن يكون لها معجزة خالدة بخلودها حتى بعد موت نبيها؛ لتكون حجة على كل المعترضين والمعاندين، ونوراً تستهدي به الخليقة إلى ما شاء الله تعالى ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٢].

---

(١) الكشوف في الإعجاز القرآني وعلم الحرف ـ الشيخ رضوان سعيد فقيه: ص٣٠.

(٢) سورة إبراهيم: (١).

فبغض النظر عن محاولات حفظ القرآن التي ساهمت جميعها في عملية الحفظ ؛ سواء التي قام بها النبي الأعظم محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ، أو قام بها أصحابهم أوغيرهم من البشر ؛ إلا أن العناية الإلهية كان لها النصيب الأوفر في التكفل بحفظه وصيانته وتنزيهه[١] ، ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾[٢] ؛ سواء جاء هذا الحفظ في مصدريته ، أو في مرحلة تنزيله وتلقيه ، أو حتى في مراحل إبلاغه ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾[٣].

ومن جهة أخرى ، مثل العمق الذي انطوت عليه آياته (البطون) أحد أهم الخصائص المتينة التي حظي بها ، وجعلت نوره يستديم في جريه على أهل كل زمان ومكان ؛ كالبحر الممتدّ من دون أن يبلغ منتهاه بعداً آخر من أبعاد الإعجاز[٤]. قال الإمام الصادق عليه السلام : «للقرآن تأويل يجري كما يجري الليل والنهار ، وكما تجري الشمس والقمر ، فإذا جاء تأويل شيء منه وقع ، فمنه ما قد جاء ، ومنه ما يجيء»[٥].

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ـ محمد جواد البلاغي : ج١ ص٢٨.

(٢) سورة فصلت : (٤٢).

(٣) سورة الحجر : (٩).

(٤) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي : ج١ ص١٠٢.

(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي : ج٢٣ ص٧٩ ب٤/ وجوب معرفة الإمام... ح١٣.

فالقرآن هو الصيغة الأخيرة الكاملة من تعليمات السماء إلى الأرض، والدستور الكامل والشامل لجميع مجالات الحياة وتطورات الزمن.

باق جديداً طرياً لا يبلى ولا يفنى، ولا يستطيع أحد من الجن أو الإنس مهما بلغوا من الذكاء والعلم والفطنة والكياسة أن يتحدوه ويأتوا بمثله، أو أن يحطوا من عظمته بتشويه أو تحريف أو غيره؛ لأنه المعجزة الإلهية الخالدة.

ومن هذه الوحيانيّة ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1] التي اعتقد المسلمون بمصدريتها الأولى من بين مصادر تشريع الأحكام الإسلامية، ويليها كمصدرٍ ثانٍ السنة الشريفة[2]، أي: قول المعصوم عليه السلام وفعله وتقريره؛ انطلقوا في عملية الكشف عن مقاصده للحصول على ما اكتنزته ألفاظه؛ وذلك من خلال فهم كل آية بما يليق بها فيه.

---

(١) سورة الشعراء: (١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٥).

(٢) ولا يعني ذلك إنكار دور العقل - المستنير بنور الشرع - بوصفه مصدراً يضطلع بدور الكاشف عن الأحكام وغيرها؛ إلا أن ما له ارتباط بموضوعية ما نحن فيه واقع حول النص الديني فقط؛ وإلا فإن العقل حجة ما دام مرتبطاً بالشرع، أما عمله بالاستقلال فلا يعتبر بحجيته إطلاقاً.

وبما أن ألفاظه حَمَلت بُعداً لا يمكن للعقول البشرية إدراكه لجأ المسلمون إلى المعصوم عليه السلام ـ أي: النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام ـ في إبانتها والكشف عنها؛ لأن المعصوم عليه السلام ـ مما لا شك فيه ـ هو المفسر والمبيِّن الأول لها.

والسؤال الهام الذي يجب طرحه هنا هو:

لماذا المعصوم عليه السلام هو المفسر الأول ـ والوحيد ـ للقرآن؟

ألا يمكن للبشر تفسير القرآن؟

هذا ما سنتناوله في المطلب التالي.

المطلب الثاني:

المعصوم عليه السلام هو المفسر للقرآن

لا يمكن أن نغفل عن الرابطة الذاتية بين لغة الوحي ومسألة تفسير النص، وأهم ما يقف أمامنا من تساؤلات في هذا المطلب:

هل كان هناك إبهام في لغة الوحي المفضي إلى عدم الفهم، أم كان هناك جلاء ووضوح يسهل تناوله لدى التدبر؟

ومن المخول بفهم القرآن وتفسيره؟

مما لا شك فيه، أن لغة القرآن هي لغة العرف العام كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[1]؛ ولكن وإن أنزل عربياً كما قال عزّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾[2] إلا أن فِهْمَ آياته فهماً صحيحاً يُعد أمراً مستعصياً على عقول البشر، فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا جابر إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً، ثم قال: يا جابر وليس شيء أبعدَ من عقول الرجال منه»[3].

حاجة القرآن إلى المعصوم عليه السلام

إن قلت: يستحيل أن يكون هناك متناقضات في القرآن، فلقد دلت آياته على عالميَّة الخطاب، وعدم اقتصارها على صنف دون آخر، أو

---

(١) سورة إبراهيم: (٤).

(٢) سورة الزخرف: (٣).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص٩٤ ك/ القرآن ب٨/ أن للقرآن ظهراً وبطناً وأن علم كل شيء في القرآن وأن علم ذلك كله عند الأئمة عليهم السلام ح٤٥.

على قوم دون غيرهم، فهو يتخطى الزمان والمكان ليشمل الجميع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِين﴾[1].

كما أنه لا يمكن أن يُقسِّم على تيسيره، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن﴾[2]، وفي نفس الوقت يجعله صعباً على الأفهام! فتعطيل فهم هذه المعجزة يفضي إلى تجميدها؛ فما هي الثمرة إذاً من إرسالها؟

وبالبداهة أن الله ﷻ لم يُنزِل القرآن للتلاوة فقط؛ بل للعمل بما فيه من أحكام وقوانين وغيرها في واقع الحياة، وإذا لم يمكن فهمه فكيف يتم العمل به؟!

قلت: نعم، قد يُنظر لهذا الأمر على أنه من المتناقضات عند بعض أهل العقول؛ ولكن حينما نعي ولو جزءاً يسيراً من حكمته الإلهية في ذلك فلا يزيدنا هذا الوعي إلا تحيراً في معجزة عبده ورسوله الأعظم النبي محمد ﷺ!

ففي الحكمة يستحيل الاتصال بين القديم والحادث بأي وجه من الوجوه، وحتى تصل رسائله السماوية بكل ما تتضمن من أوامر ونواهٍ

---

(١) سورة القلم: (٥٢).

(٢) سورة القمر: (٣٢).

وغيرها إلى مخلوقاته على الوجه الذي يريده عز وجل لإيصالهم للسعادة الأبدية ؛ جعل لهم واسطة بينه وبينهم، وولاة لأمره تكويناً وتشريعاً، وتراجمة لوحيه ـ أي: للقرآن وغيره من وحيانيات السماء ـ، وهم النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته عليهم السلام[1].

وقد جاء القرآن بتأكيد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[2].

وورد عنهم عليهم السلام ـ في معنى هذه الآية ـ: «فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الراسخين في العلم، قد علمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم، فأجابهم الله بقوله ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ ؛ فالراسخون في العلم يعلمونه»[3].

---

(١) المخازن ـ الميرزا حسن كَوهر: ص٢٤.

(٢) سورة آل عمران: (٧).

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٢١٣ ك/ الحجة ب/ أن الأئمة عليهم السلام قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم ح٢.

ومن جهة أخرى، لما جعل الله ﷻ في كتابه الظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه من الآيات، واحتمل حمل ألفاظه على وجوه كثيرة يمكن حتى للمجسم أن يستدل على بعضها ظاهراً لتأييد معتقده؛ جعل له ناطقين (مفسرين) يبينون ما فيه[١].

فانظر كيف قالت المجسمة بأن لله يداً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ، واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢]، وما كان ذلك الاجتراء إلا من حمل هذه الآية على وجهها الظاهر في اللغة، الذي لا يمكن ضبطه مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[٣]، فهو يتقاطع مع المعتقدات والقيم الدينية ضرورية القطعية.

فإن من ضروريات التوحيد اعتقاد المكلف أن الله ﷻ ليس كمثله شيء؛ لأن المشابه تستلزم الشركة في الصفات، وذلك يفضي إلى النقص في حقه ﷻ[٤]؛ فهذه القاعدة الاعتقادية ترد كل الوجوه والإشكالات التي تَحتمل عدم تنزيه الله ﷻ من صفات مخلوقاته.

---

(١) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٣٦.

(٢) سورة الفتح: (١٠).

(٣) سورة الشورى: (١١).

(٤) حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٣٢.

ولا يقال: بأن هذا هو الظاهر من دلالة الآية، بل يجب أن يقال أن عقولنا لم ولن تتوصل إلى مفهومها الحقيقي وإن تم مخاطبتنا بلغتنا، فليس النقص في الآية؛ بل في استعداد قابلية إدراكنا لها. وحتى ما ندركه من وجوه دلالية ما هي إلا قشر من حقيقة إدراكهم عليهم السلام لها؛ لأن (القرآن رمز لا يعرفه إلا الله تعالى، ومن أرسله إليه، وأهل بيته، وأهل البيت أدرى بالذي فيه)[1].

وعلى ذلك، حينما كانت الآيات محتمله الوجوه ـ بتفسيرنا لها ـ يفضي بعضها إلى تقاطع مع بعض الاعتقادات الدينية ذات الصبغة الحتمية والقطعية، انعم الله عز وجل على خلقه ناطقاً ومبيناً يعلمُ تفسيرها وتأويلها ليقطع حجة من كان في قلبه زيغ يبتغي الفتنة بين المؤمنين من خلال المتشابه من آياته، فقد قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَاب﴾[2].

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١١٩.

(٢) سورة آل عمران ـ الآية: (٧).

نعم، إن في القرآن آيات (المحكمات) تعرف من ظاهر اللغة بحيث لا يجهلها أحد، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾[١]، فهذه لا تحتاج إلى الخبر لفهم المراد منها[٢]. وسوف يأتي بيان ذلك عند ذكر منهج تفسير القرآن بالقرآن.

أيهما أفضل القرآن أم أهل البيت عليهم السلام؟

إن قلت: عليه، إن حصيلة المعرفة القرآنية لا تكفي من دون تفسيرهم عليهم السلام؛ فهل هذا يعني أنهم عليهم السلام أفضل من القرآن؟

إن قلت: نعم، هم عليهم السلام أفضل من القرآن؛ فما حال قول النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «إن علياً والطيبين من ولدي هم الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر»[٣].

وإن قلت: لا، القرآن أفضل منهم عليهم السلام؛ فما حاجة الفاضل إلى المفضول في تفسيره وبيان ما فيه؟

قلت: إن جواب هذا الإشكال قد غاص فيه العديد من المفسرين لهذا الحديث، وكان لكل واحد منهم شرعة ومنهاج في بيانه.

---

(١) سورة الأنعام: (١٩).

(٢) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٣٨.

(٣) الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي: ج١ ص٧٥.

وقبل بيان الإجابة عليه ألا ينقدح في ذهنك من تدبره أمور:

الأول: إذا كان المفسرون وغيرهم لم يستطيعوا بيان معنى هذا الحديث المتواتر ـ وهذا ظاهر في اختلافهم في معناه ـ، وهو كلامُ مخلوق مثلهم؛ فكيف بإمكانهم بيان كلام الله عزوجل من دون مرشد ومفسر؟

ثم أيعقل أن يكون كلام أهل البيت عليهم السلام صعباً مستصعباً، كما قال أبو عبدالله عليه السلام: «إن حديثنا صعب مستصعب»[1]، ويحتاج إلى مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان في معرفتهم؛ لمعرفة حديثهم أو كلامهم، ولا يحتاج كلام الله عزوجل إلى مفسر أيضاً.

الثاني: من ملاحظة حيثية صفتي النطق بينهما (صامت وناطق) التي وردت في العديد من الروايات المستفضية، كقول أمير المؤمنين عليه السلام: «القرآن كتاب الله الصامت وأنا كتاب الله الناطق»[2]، فإنهم عليهم السلام أفضل من القرآن؛ من باب كمال النفع باستنطاق الصامت لإظهار حجيته، وبيان محكمه من متشابهه، ومجمله من مبينه، وغير ذلك[3].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٤٠١ ك/الحجة ب/فيما جاء أن حديثهم صعب ح٣.

(٢) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج١٨ ص٢٠ ك/ القضاء ب٦/عدم جواز القضاء والإفتاء بغير علم بورود الحكم عن المعصومين عليهم السلام ح١٢.

(٣) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٣٧.

الثالث: نحن ـ في بعض الأحيان ـ نلوك الأحاديث كما نلوك الآيات، ونَعبرُ عليها من دون تدبر أو حتى إجمال نظر في عمق مضامينها الشريفة؛ فبالتأمل لجميع الأحاديث التي وردت بهذا المعنى، نجد أن الثقل عبّر عنه بثقل أكبر وثقل أصغر، ولم يأتِ بثقل أفضل!

فمن أين جاءت مقايسة المفاضلة بين القرآن وأهل البيت عليهم السلام؟ وكيف يكون هناك مفاضلة بين الذات التي تذوت منها جميع الذوات وبين ذات خُلقت من شعاع أنوارهم عليهم السلام؟

فالمقايسة بين موجودين من رتبتين مختلفتان؛ وهذه المقايسة ليست دقيقة لا في الحكمة ولا في موازين العقول.

نعم، من حيث النظر إلى حيثية أنهما ثقلان؛ أي: من حيث اشتمالهما على خزانة الأسرار الإلهية، يمكننا المقايسة على هذا المفهوم. فمن الأجدر أن يصاغ الإشكال على هذا الرسم:

أيهما أكبر القرآن أم أهل البيت عليهم السلام؟

وإذا وصل الكلام إلى هنا، فنقول: إن جواب هذا الإشكال حيّر عقول العلماء قاطبة ولم يرفع عويصته إلا العالم الحكيم الشيخ أحمد

بن زين الدين الأحسائي قدس سره، ويكفينا نقل نص كلماته الواضحة والجلية ـ في معنى هذا الحديث ـ بما لا مزيد عليه إلا في توضيحها[١]:

قال قدس سره: (أن لهم عليهم السلام [مع القرآن] ثلاث مراتب:

الأولى: مرتبة المعاني، وهم في تلك المرتبة الحجاب الأعلى الذي لا يظهر بالكلام ولا يدرك بالأفهام، وإنما الواجب على كلِّ من دنا من تلك الطلول كمال الصمت، وتمام الخمول، وذلك أعلى معاني: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبب معرفتنا»[٢]، وتلك المنازل لا يمكن أن يحلّ بساحتها أحد إلا من سكن فيها وخرج منها، وهي المعاني التي يسأل الأنبياء ربهم بها، والأولياء يدعونه بها، وهو قول الحجة عليه السلام في دعاء رجب: «اللهم إني أسألك بمعاني جميع ما يدعوك به ولاة أمرك، المأمونون على»[٣] انتهى. وفي هذا المقام هم عليهم السلام أكبر من القرآن، وكل شيء من خلق الله.

---

(١) هذه واحدة من الأمور التي يجب أن تحسب في رصيد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره، وينظر لها نظرة إنصاف في حقه؛ فحتى الذين حاموا حول إجابة هذا الإشكال لم يستغنوا عن ذكر إجابته بين سطور كلماتهم. انظر: رسائل آل طوق القطيفي ـ الشيخ أحمد بن الشيخ صالح آل طوق القطيفي: ج٣/ كنز ثمين في حصن حصين ص٤٤٥. توشيح التفسير في قواعد التفسير والتأويل ـ الشيخ محمد بن سليمان التنكابني: ص٤٩.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨ ص٣٣٨ ب٢٥/ الأعراف وأهلها.. ح١٦.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٥ ص٣٩٣ ب٢٣/ أعمال مطلق أيام شهر رجب ولياليها وأدعيتها ح١.

الثانية: مرتبة الأبواب، وهم عليهم السلام فيها باب الله الذي يصدر منه الفيض إلى جميع ما في الوجود المقيد بعدهم، وهم عليهم السلام في هذه المرتبة مساوون للقرآن؛ لأنهم عليهم السلام الآن في رتبة العقل الأول.

والعقل الأول هو الملك الأعظم المسمى بالروح من أمر الله، وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش، وهو القرآن في الباطن، وإنما افترقا من جهة الظهور. فالظهور في اللفظ قرآن، والظهور في الصورة الملكية روح من أمر الله، وقد أشار الله سبحانه في كتابه العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾[1].

والروح من أمر الله هو الموحى إليه، وهو الملك المسمى بروح القدس الأعلى، وهو المجعول نوراً يهدي به الله من يشاء من عباده، وهو القرآن.

ومن نظر بفؤاده في هذه الآية الشريفة عرف بدليل الحكمة أنه القرآن، وأنه الملك الأعظم، فإنه هو الذي يقذف الله الوحي في قلبه،

---

(١) سورة الشورى: (٥٢).

وهو معهم يسددهم فلا يعلمون شيئاً إلا بواسطته وهذا هو القرآن، فإن الله أخبر في مواضع متعددة أنه لا يعلم شيئاً قبل القرآن مثل قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا﴾[1]. فهم عليهم السلام في مرتبة الأبواب مساوون للقرآن.

الثالثة: مرتبة الإمامة، وهو هذا الآدمي الظاهر الذي فرض الله طاعته على عباده. وهم عليهم السلام في هذا المقام لا يعلمون شيئاً إلا من القرآن وما نزل به جبرئيل والملائكة عليهم السلام في ليلة القدرة وغيرها، إنما هو في بيان ما انطوى عليه القرآن من الخفايا؛ ولهذا وصف الله علياً عليه السلام بالعلم في غاية الوصف، حيث قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[2]، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فأخبر عن كتابه المجيد أنه تفصيل كل شيء، وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام سُئل: هل عندكم من رسول الله شيء من الوحي سوى القرآن؟ قال: «لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في

---

(١) سورة هود: (٤٩).

(٢) سورة الرعد: (٤٣).

(٣) سورة يوسف: (١١١).

كتابه»[١]. وقد قال في كتابه إشارة إلى قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِين﴾[٢].

ومن المعلوم عند العلماء مما لا يختلفون فيه أن الكتاب التدويني مطابق للكتاب التكويني، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ في تفسير باء بسم الله الرحمن الرحيم ـ: «لو شئت لأوقرت سبعين بغلاً من تفسير باء بسم اللّه الرحمن الرحيم»[٣]، وقول الباقر عليه السلام: «لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عليه السلام حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد»[٤].

وأمثال ذلك، فإذا عرفت المراد ظهر لك أن القرآن هو الثقل الأكبر في هذه المرتبة وهم الثقل الأصغر[٥]؛ لأن حكمهم تابع لحكم القرآن لا العكس، وهم حملته)[٦].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج٣ ص٧١.

(٢) سورة هود: (٤٩).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٠ ص١٥٨ب٩٣/ علمه عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله علمه...

(٤) التوحيد ـ الشيخ الصدوق: ص٩٢ ح٦

(٥) تأمل كلماته قدس سره، لم يأتِ ذكر لمقايسة الأفضلية بل جاء الذكر في أيهما ثقل أكبر وثقل أصغر.

(٦) رسالة في جواب الملا كاظم بن علي بن نقي السمناني "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٧٦-١٧٨.

توضيح محصلة كلامه قدس سره :

أن الله عز وجل كما أنزل كتابه أنزل كذلك بيانه، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾[1]، وجعل له مُبيّناً خاصاً نصَّ عليه في آياته وهو رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وأهل بيته عليهم السلام، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾[3]؛ أي: على آل محمد تفسيره[4]. فالقرآن الصامت لا غنى له عن القرآن الناطق ـ أي: المعصوم عليه السلام ـ، والمفسر الأول بعد الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصيه أمير المؤمنين عليه السلام، الذي علمه تأويل كل آية فيه، ومن بعده الأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

فقد نادى عليه السلام بأعلى صوته ـ بعد أن غُصِبت الخلافة منه، فلزم بيته، وأقبل على القرآن يجمعه بعدما كان في الصحف والشظاظ والأسيار والرقاع، ولما انتهى منه جمعه في ثوب واحد ختمه، فخرج إلى الناس وهم مجتمعون مع أبي بكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «أيها

---

(١) سورة النور: (٤٦).

(٢) سورة النحل: (٤٤).

(٣) سورة القيامة: (١٩).

(٤) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج٥ ص٥٣٦ سورة القيامة.

الناس إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله، ثم بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد، فلم ينزل الله على نبيه ﷺ آية من القرآن إلا وقد جمعتها، وليست منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها»[١].

وعن عمرو بن مصعب، عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه»[٢].

وورد عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبي الحسن عليه السلام بمكة فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم تسمع به، فقال أبو الحسن عليه السلام: «علينا نزل قبل الناس، ولنا فسر قبل أن يفسر في الناس، فنحن نعرف حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وسفريه وحضريه، وفي أي ليلة نزلت كم من آية، وفيمن نزلت وفيما نزلت، فنحن حكماء الله في أرضه، وشهداؤه على خلقه»[٣].

فالقرآن في حد ذاته مفسر، وحتى إطلاق مصطلح (تفسير) على ما يتوصل إليه غيرهم عليهم السلام من حقائق فيه مسامحة؛ لأن حمله على

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص٤١ ك/القرآن ب٧/ ما جاء في كيفية جمع القرآن.. ح١.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٢٢٩ ك/ الحجة ب/ أنه لم يجمع القرآن إلا الأئمة عليهم السلام .. ح٣.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٣ ص١٩٦ ب١٠/ أنهم عليهم السلام أهل علم القرآن.. ح٢٦.

الحقيقة من باب تحصيل الحاصل[١]، وتزمت البعض على استعمالها من مقتضى المعرفة النسبية في افتراض الكشف عن درجة معينة من الخفاء والغموض في المعنى لا غير[٢]، يقول الشيخ محمد جواد آل مغنية العاملي في مقدمة "التفسير الكاشف": (أيقنت ـ وأنا ماضٍ في تفسير آي الذكر الحكيم ـ أن أي مفسر لا يأتي بجديد لم يسبق إليه، ولو بفكرة واحدة في التفسير كله)[٣].

طبعاً، هذا إذا كان التفسير قد جرى بما ورد عنهم عليهم السلام؛ لأنه كما قال الشيخ الطوسي: (واعلم أن الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن الأئمة عليهم السلام..)[٤]؛ وإلا فهو تفسير بالرأي لا يدخل في إطار تفسير القرآن بتاتاً.

وعليه، فإن كل من حاول تفسير أو تأويل القرآن بمنأى عنهم ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ؛ إما أنه لم يَع بأن لهذا القرآن مفسّراً ومبيّناً،

(١) نحن نسأل: هل القرآن نزل مع تفسير أو بدون؟ إن قلت: نزل بدون تفسير؛ فالدعوى كاذبة في وجه تواتر النصوص الشرعية بذلك، وإن قلت: نزل مع تفسير؛ فعملية تفسيره مرة أخرى تعد من ضرب تحصيل الحاصل.

(٢) مقدمة مجمع البيان ـ أحمد رضا: كلمة في التفسير. لسان العرب ـ ابن منظور: ج٦ ص٣١٦.

(٣) التفسير الكاشف ـ محمد جواد مغنية: ج١ ص١٠.

(٤) التبيان في تفسير القرآن ـ الشيخ الطوسي: ج١ ص٤.

وهذا جهل لا يمكن التغافل عنه ؛ لأن عدد الآيات ودلالاتها البيِّنة على كونهم مصدر التفسير الأول للقرآن موجودة في أكثر من موضع في القرآن. وإما أنه وعى وجود هذه الآيات ولكن لم يفهم دلالاتها لعدم اكتناف ما لديه من قواعد على بيان معانيها. وإما أنه وعى وجود هذه الآيات ولكن نفسه صدته عن صراطها القويم حسداً وبغضاً لهم عليهم السلام ؛ فابتغى طريقاً غير طريقهم، وكان من الذين تخطفهم الطير وهوى بهم في مكان سحيق، وظلمة جهله هذه حتماً هي من الجهل المركب.

فيجب على طالب لذة تفسير القرآن التي لا تضاهيها لذة نيلها من مفسرها الحقيقي ؛ لأن كلماته عليهم السلام هي من تكشف لنا روح الترجمة الحقيقية للألفاظ الوحيانية.

حال فهمنا في تفسير القرآن

وإن قلت : ما حال فهمنا في تفسير القرآن؟

قلت : (كل ذلك قشر وظاهر بالنسبة إلى مبدئنا وأوائل جواهر عللنا.. لأن علقنا من فاضل جسمهم)[1].

---

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي : ج١ ص١٢٠.

فقد خاطبنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بعلمه (القرآن) في عوالم سبقت هذا العالم.

فما فهمنا من خطابه به لنا في عالم الأنوار الذي هو في أول الدهر، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾[1]؛ أي: في عالم العقول حينما كنا معاني جوهرية مجردة عن المادة العنصرية والصورة النفسية والمثالية؛ ولكن ليس بشكل مطلق[2]، يسمى بباطن باطن باطن الباطن.

وما فهمنا في عالم الأرواح (عالم الرقائق)، الذي هو برزخ بين معاني العقل وصور النفس، وفيه تم بداية صوغ الصور، يسمى بباطن باطن الباطن.

وما فهمنا في عالم النفوس الذي هو في وسط الدهر وفيه تم إلباس مادتنا النورية صورة أصلية، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾[3]، يسمى بباطن الباطن.

---

(١) سورة الإنسان ـ الآية: (١).

(٢) لا نقصد من التجرد في هذا العالم معنى البساطة الساذجة؛ بل مقصودنا هو التجرد من الارتباط بالمادة العنصرية والمدة الزمانية فقط.

(٣) سورة الأعراف: (١١).

وما فهمنا في عالم الأشباح أو في عالم المثال الذي هو برزخ بين عالم الغيب والشهادة يسمى بالباطن.

وما فهمنا في عالم الأجسام يسمى بالظاهر.

وجميع مراتب فهمنا للقرآن إذا قيس بفهم النبي الأعظم محمد وأهل بيته ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ فإنه قشر؛ حتى فهم الباطن الذي يقول به بعض المفسرين ليس هو الباطن على الحقيقة بالمعنى المخصوص لديهم ـ صلوات الله عليهِ عليهم ـ؛ لأن ـ كما قلنا سابقاً ـ فهم القرآن أمر خاص بهم؛ وإنما هو الباطن عندنا الظاهر بالنسبة إليهم[1].

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٢٠.

المطلب الثالث:

تعريف التفسير ونشأته

لا يتسع البحث للعرض التفصيلي لمصطلح التفسير وبيان جميع استعمالاته في التراث الفكري الإسلامي.

وعليه، سوف يقع هذا المطلب أولاً في بيان مقتضب لمصطلح (التفسير) ليتسنّى لنا رسم ملامحه بوضوح وتمييزه عن سائر المسائل التي لها ذات الصلة بالعلوم القرآنية، وثانياً في مختصر أدوار نشأته.

التفسير في اللغة:

قال الراغب: (الفَسْر، والسَفْر متقاربا المعنى كتقارب لفظيهما، والفرق بينهما؛ أن الأوّل: يُستعمل في إظهار المعنى المعقول كقوله ﷻ: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]؛ أي: أحسن تبييناً. والثاني: يُستعمل في إبراز الأعيان للأبصار، يقال: أسفر الصبحُ، أو سفرت المرأة عن وجهها)[2].

وقال ابن منظور: (مأخوذة من "فسَّر" بمعنى: الإبانة والكشف. والفَسْر ـ مصدراً ـ بمعنى البيان أو التبيين، وكشف المغطى، وفسر الشيء، يفسره ـ بالكسر ـ، وتفسيره ـ بالضم ـ، فسراً وفسره: أبانه)[3].

وقال الطريحي: (إن التفسير في اللغة: كشف معنى اللفظ وإظهاره، مأخوذ من الفّسْر، وهو مقلوب من السَفْر)[4].

---

(١) سورة الفرقان: (٣٣).

(٢) تفسير المراغي: ج١ ص٦ـ١٢.

(٣) لسان العرب ـ ابن منظور: ج٥ ص٥٥.

(٤) مجمع البحرين ـ الطريحي: مادّة فسر.

فالظاهر أن معنى مصطلح التفسير عند أهل اللغة لا تخرج دلالته في الاستعمال عن كونه الكشف والإبانة والإيضاح.

وهذا المصطلح لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة في صدد طمأنة النبي الأعظم ﷺ أمام تحدي المشركين في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]، وهو في هذه الآية له وجه في حمل المعنى اللغوي عينه؛ أي: إن معناه الكشف والبيان[2].

التفسير في الاصطلاح:

على الرغم من وقوع الاختلاف في تعريف مصطلح التفسير وحدّه عند المفسرين للقرآن؛ إلا أنه يمكن القول بأن التفسير علم كسائر العلوم، له موضوع تدور حوله جميع مسائله، وناحية غرض منه.

فأما موضوعه: القرآن الكريم. وأما مسائله: ما يستظهر من الآيات ـ ظاهراً وباطناً وتأويلاً ـ بما أنه مراده ﷻ. وأما الغرض منه: الوقوف على مراده ﷻ ـ إجمالاً وتفصيلاً ـ في مجالي المعارف والمغازي والقصص واستنباط الأحكام الشرعية منه، وغيرها[3].

---

(١) سورة الفرقان: (٣٣).

(٢) التبيان في تفسير القرآن ـ الطوسي: ج٧ ص٤٨٩.

(٣) تفسير الصراط المستقيم ـ السيد حسين البروجردي: ج١ ص٢٠٠.

فتفسير القرآن اصطلاحاً:

قال الـراغب الأصـفهاني: (إنّ التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد، أعمّ من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره)[١].

وقال الطبرسي: (هو الكشف المراد عن اللفظ المشكل)[٢].

وقال السيد أبو القاسم الخوئي: (هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز)[٣].

وقال العلامة الطباطبائي: (هو بيان الآيات القرآنيّة والكشف عن مقاصدها ومداليلها)[٤].

فرسالة التفسير ـ على ضوء ما تبنيناه من تعاريف ـ آلية تتكفل ببيان وكشف[٥] المراد من قوله ﷻ في كتابه.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ـ الزركشي: ج٢ ص٢٨٥. الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي: ج٢ ص١١٩٠.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ـ الطبرسي: ج١ ص١٣.

(٣) البيان ـ السيد أبو الخوئي: ص٣٩٧.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج١ ص٥.

(٥) نقصد بلفظ (بيان) بالنسبة إلى المفاد الاستعمالي للفظ القرآني على ضوء الاستخدام العرفي واللغوي (المعنى الظاهر). ولفظ (الكشف) بالنسبة إلى المقاصد الإلهية الحقيقة المحتجبة وراء العبارات القرآنية (المعنى الباطن).

مقترح في تعريف مصطلح التفسير

يبدو لي أن هناك إشكالية تكتنف تعريف التفسير للقرآن، وهي السذاجة الزائدة التي تحجب صراحة ووضوح التعريف نفسه؛ وهذا الأمر مقبول إن أريد به الجامعية لكافة الرسوم التي قيلت في بيان معنى مصطلح التفسير؛ إلا أن إيضاح الأسس والحدود التي ترتكز عليها عملية التفسير أمر لا بُدّ منه في التعريف؛ لأن (المقصود الأصلي من التعريف أمران:

الأول: تصور المعرف (بالفتح) بحقيقته، لتتكون له في النفس صورة تفصيلية واضحة.

والثاني: تمييزه في الذهن عن غيره تمييزاً تاماً.

ولا يؤدي هذان الأمران إلا الحد التام. وإذ بتعذر الأمر الأول يكتفي بالثاني، ويتكفل به الحد الناقص والرسم بقسميه)[1].

وأغلب التعاريف التي ذُكرت في معنى مصطلح التفسير لا تحمل صورة تفصيلية واضحة؛ بل إنها لا تتمايز عن غيرها تمايزاً تاماً.

فما المائز بين التفسير المحمود والتفسير المذموم في ألفاظ التعريف؟

---

(١) المقرر في شرح منطق المظفر ـ للعلامة المظفر ـ شرح السيد رائد الحيدري: ص١٧٧.

وما الحدود والضوابط التي يجب مراعاتها في التفسير؟

فمن المعلوم أن من شروط التعريف كونه جامعاً لأفراده، مانعاً من دخول أغياره.

ونحن نرى أن الجامعية مفقودة ـ مثلاً ـ في التعاريف التي تحصر تفسير القرآن بمنهج معين؛ لأنه وإن كان المقصود منها خصوص لوازم المنهج نفسه؛ إلا أن الحصر لا يكشف إلا عن وجه من وجوه اللفظ الذي ساقته لوازمه، ولمثل هذا لا يمكن أن يقال عن دلالته بأنها المراد الوحيد من اللفظ القرآني؛ لأن الآية بل الكلمة الواحدة تحتمل وجوهاً عديدة. كذلك نلاحظ دخول الأغيار في العديد من التعاريف؛ كالتفسير بالرأي الذي هو حقيقة ليس بتفسير.

فالأفضل أن يكون هناك حدود في التعريف لتفصيله وتميزه عن غيره. فمثلاً، يمكن أن يقال: إن التفسير هو بيان وكشف المفاهيم التي أودعها الله ﷻ في كتابه؛ استناداً إلى: ظواهر آياته، وما ورد عن المعصوم عليه السلام، وما دل عليه العقل المستنير بهما، وما دل عليه الدليل الكشفي العياني... وغيرها من حدود نص الشرع عليه السلام عليها كإجماع الفرقة المحقة.

فالمستند الأول: ناظر إلى جهة حث القرآن على تدبر آياته لفهم ما تكتنزه من معان كما قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن﴾[1]، وهذا الاعتبار لجهة تفسير القرآن بالقرآن.

والمستند الثاني: ناظر إلى الروايات الواردة عن المعصوم عليه السلام، الكاشفة عن حقيقة ما تتضمنه الألفاظ القرآنية بكل مصاديقها الظاهرة والباطنة؛ لأنه كما قال السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره: (أن القرآن رمز بين الحبيب والمحبوب، لا يعرفه ـ بحقيقة مراده ـ سواهما، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل نبيه ـ صلوات الله عليهِ وآله ـ رسولاً إلى جميع خلقه، من الأولين والآخرين، من الدرّة إلى الذرّة، لنصّ الآيات والروايات، ولا ينكره إلا جاهل، أو جاحد معاند، فهو قبل المرسل إليه بالذات والرتبة، وإلا يلزم تقديم الأخسّ على الأشرف، وإمارة الوضيع على الشريف، وهذا لا يجوزه عاقل)[2]، وهذا الاعتبار لجهة تفسير القرآن بالروايات.

والمستند الثالث: ناظر إلى جهة حجية العقل المستنير بنور الشرع الذي حثت نصوصه على إعماله في تدبر آياته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ

(١) سورة محمد: (٢٤).

(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٠٩.

أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾[١]، وهذا الاعتبار لجهة تفسير القرآن بالعقل المستنير بنور الشرع.

والمستند الرابع: ناظر إلى جهة دليل الحكمة الذي هو الدليل الكشفي العياني المستند على الفؤاد والنقل؛ لأنه هو الموصل إلى حقائق الأشياء على ما هي عليه[٢]، ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[٣]، وهذا الاعتبار لجهة تفسير القرآن بالعرفان القائم بما ورد عنهم عليهم السلام.

وعلى أي حال، ليس مقصودنا من هذا ـ المقترح ـ تأسيس تعريف لمصطلح التفسير، فهذا الأمر موكل إلى أهل الفن فيه؛ ولكننا أردنا لفت النظر إلى الحاجة الماسة إلى تعريف واضح مفصل ومميز له لا غير.

---

(١) سورة الأنبياء: (١٠).

(٢) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٩٧ـ٢٠٠.

(٣) سورة البقرة: (٢٨٢).

نشأة علم التفسير

كانت العلوم الإسلامية عموماً في مرحلة التلقي في بداية صدر الإسلام، وتفسير القرآن هو واحد منها. فقد كان الصحابة يرجعون إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أخذ تفسير القرآن منه، ثم يقومون بنقله وروايته للناس من دون وجود تقنين علمي في تأصيله وتفريعه وتحليلاته عندهم؛ لأن طبيعة دور التلقي كانت تستلزم ذلك.

ولا زالوا ـ في عصر الأئمة عليهم السلام ـ لا يرون أنفسهم مستغنين عن الإمام المعصوم عليه السلام، أو من الاستفادة من علمه بعده صلى الله عليه وآله وسلم.

وبدأت مرحلة تأسيسه، ووضع الرسوم العريضة التي تُمثل الأطر الأولية له على يد أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أنهج عليه السلام الملامح الأولى للأُسس التفسيرية، حتى إنّ ابن عباس قال: «جلّ ما تعلمت من التفسير من علي بن أبي طالب عليه السلام»[1].[2]

أما مرحلة التدوين عند الصحابة بدأت حينما دعت الحاجة جراء الظروف التي اكتنفت ذلك العصر ـ بما تحمل من دواعي التلاعب

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٠ ص١٥٧ب٩٣/ علمه عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمه ألف باب وأنه محدثاً.

(٢) فتح البيان ـ السيد مصطفى الطبطبائي: ص١١.

وتوجيه النصوص القرآنية تبعاً لأغراض شتى ـ تصدي أهل البيت عليهم السلام لتفسير القرآن، وإرشاد الناس إليهم في فهم نصوصه كما قال أبو جعفر عليه السلام: «فإنما على الناس أن يقرؤوا القرآن كما أُنزل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره فالاهتداء بنا وإلينا»[١].

فدوَّن الصحابة الروايات التفسيرية التي تلقوها منهم عليهم السلام[٢]، ثم جمعوها في كتب استخدموها في فهم وتفسير القرآن لاحقاً[٣].

وهكذا بدأ يتبلور علم التفسير الذي نشأ على يد النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام شيئاً فشيئاً؛ ولكن لم تَسلم علمية تبلوره من الحيِّد عن المبَيَّن والمفسَّر المنصوص عليه في الآيات، وإنما أخذت تتشعب وتكوّن اتجاهات ومناهج تفسيرية عديدة، مما جعل إطلاق

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٧ ص١٩٧ أبواب ولايتهم وحبهم وبغضهم ـ صلوات الله عليهم ـ ب٧/ أنه لا تقبل الأعمال إلا بالولاية ح٦٠.

(٢) هناك كتاب تفسير ينسب إلى الإمام علي عليه السلام ورد على شكل رواية مفصلة في بداية تفسير النعماني. [تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ـ السيد حسن الصدر: ص٣١٦]. وكتاب آخر يسمى (مصحف علي بن أبي طالب عليه السلام)، جاء فيه مضافاً إلى الآيات القرآنية، تفسير وتأويل القرآن، وأسباب نزول الآيات، ولكنه ليس موجود الآن.[التمهيد في علوم القرآن ـ محمد هادي معرفة: ج١ ص٢٩٢]. وهناك تفسير ينسب إلى الإمام الباقر عليه السلام، وتفسير ينسب إلى الإمام الصادق عليه السلام، وتفسير ينسب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام.[سير تطور تفاسير الشيعة ـ السيد محمد علي إيازي: ص٢٨].

(٣) خلاصة علم الكلام ـ الشيخ عبدالهادي الفضلي: ص١٨٩.

الحكم على كل ما وصلنا من تفاسير ـ سواء كانت قديمة أو حديثة ـ بأنها متوافقة حذوة بحذوة كما صدر عنهم عليهم السلام بعيد القطع[١].

فقد توافق مع مرحلة نشأته وتطوره ـ في القرن الأول والثاني ـ تكوّن اتجاهات تفسيرية حاولت توظيف النص القرآني طبقاً لميولها الشخصية، وآرائها الاعتقادية، ومصالحها السياسية؛ كالتفاسير الكلامية، والتفسير بالرأي وغيرهما.

أما في القرن الثالث فقد بدأت تظهر التفاسير الإشارية على يد العرفاء والمتصوفة.

واكتفى المحدثون في هذه الفترة بنقل الروايات التفسيرية التي أخذت تظهر في القرن الرابع والقرن الخامس على شكل تفاسير متكاملة، مثل: تفسير العياشي، والقمي، والطبرسي.. وغيرها.

ثم واجهت حركة تدوين التفاسير الروائية ركوداً نسبياً من القرن الخامس إلى القرن السادس، وعادت تظهر مرة أخرى في القرن العاشر والحادي عشر، مثل: تفسير البرهان، الدر المنثور، ونور الثقلين.. وغيرها.

---

(١) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ـ العاملي: مقدمة المؤلف ص٦.

وفي خلال فترة ركود تدوين التفاسير الروائية برزت التفاسير الاجتهادية التي ترتكز على الاستفادة من العقل والاجتهاد، مثل: التبيان، ومجمع البيان.. وغيرها.

وهكذا بدأت تظهر في القرون الأخيرة مناهج جديدة في التفسير، مثل: التفسير العلمي، والتفسير الاجتماعي، والتفسير الأدبي.. وغيرها[1].

(١) التفسير والمفسرون ـ الذهبي: ج١ ص١٤٠ـ١٤٢.

المطلب الرابع:

مناهج تفسير القرآن

حينما نستوقف النظر في تاريخ التفسير والمفسرين للقرآن فإننا بصورة مجملة أمام واحدة من كبرى الاختلافات التي وقعت فيها الأمة ؛ فليس من الصعب وجود آية لها أكثر من تفسير واحد بين طيات كتب تراثنا الفكري.

وفي هذا المطلب سوف نكشف اللثام عن سبب ذلك.

قد تقول: إن ما استدعى حدوث الاختلاف بين التفاسير في آية ما مثلاً، هو وجوه القرآن المتنوعة، وتعدد جوانبه المعرفية المتناولة.

فأقول: نعم، القرآن كتاب معرفي ضخم ضم بين طياته العديد من المعارف، ولهُ عدة وجوه: منها الظاهر والباطن، وللظاهر والباطن بطون إلى سبعة[1]. فهذا أمر مشهور بين المسلمين لا يختلف عليه اثنان، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وإن القرآن ظاهرهُ أنيق، وباطنهُ عميق، لا تفْنَى عَجائِبهُ، ولا تنقضي غَرائِبهُ، ولا تُكْشفُ الظلمات إلا بِهِ»[2].

فاختلاف ما بين أيدينا من تفاسير إن كان عائداً إلى تلك الجهة ـ أي إلى جهة أن منها: تفسير ظاهر، وتفسير باطن... ـ فليس لنا كلام فيه ما دام أساسه موجوداً بالنص؛ وإنما كلامنا في الاختلاف الناشئ من حاق وصميم المنهج نفسه!

فهل المنهج التفسيري الذي تم صقله من خلال شخص المُفسر، ولعبت فيه مرتكزاته واعتقاداته الفكرية والقلبية (اتجاهه) دوراً كبيراً في

---

(١) سوف يأتي الكلام عن ظاهر وباطن القرآن لاحقاً.

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج١ ص٥٥ خطبة رقم (١٨).

إبانته وظهوره بوجه محدد وطابع خاص ؛ أفاد في موضوعيته إفادة كاملة في الموافقة مع الطريقة المعتبرة للتفسير؟

أم أن اتجاهه طوع النص القرآني ، وانعكست آثاره في العملية التفسيرية؟

والحق ، من النادر جداً وجود تفسير خرج من إطار دائرة الاتجاهات ، وتم بناؤه على عملية تفسيرية مجردة من المتبنّيات الاعتقادية والاجتماعية والفكرية والسياسية وغيرها.

وهذا الندرة هي ما جعلت العملية التفسيرية تخرج بمناهج عديدة مستدعية منا ضرورة الالتفات إلى البناء المعرفي لكل واحد منها ، وعرض كل ما جاءت به على ميزان الكتاب والسنة والعقل المستنير بنورهما قبل الركون إلى ما فيه والبناء على مخرجات نتائجه التي تمخضت منه.

وقبل الشروع في ذكر المناهج التفسيرية نود أن نُعرِّف المنهج لنكتة نحتاجها في بيان عملية تقسيمها لاحقاً.

المنهج لغة : الطريق الواضح[1].

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور : ج٢ ص٣٨٣.

والمنهج اصطلاحاً: (هو طريقة يصل بها إنسان إلى حقيقة)[١]، أو (إجراء يُستخدم في بلوغ غاية محددة)[٢].

وما إلى ذلك من تعريفات اصطلاحية تختلف لفظاً، وتتفق غاية من أن المنهج القرآني هو: الطريقة التي نصل من خلالها إلى كشف مراد الله ﷻ من كلماته (القرآن)، أو الإجراء الذي نستخدمه للتوصل إلى الكشف عن معاني القرآن ومقاصده[٣].

فالمنهج هو الجانب التطبيقي الذي يتمثل في خطوات منظمة يتخذها المُفسر للكشف عن معنى الآية؛ وفق هندسة بحثية قائمة على مرتكزات دليلية، ومعايير فكرية، وقوالب موضوعية تحدد وجهة وطابع المفسر في النتيجة.

وما دام كل منهج يرسي نوعاً من الدليل على مدّعاه يحمل الثقل الأكبر في بنائه المعرفي، الذي مع غيابه تغيب صورة المنهج التامة، وتكون عملية الاستدلال مجرد فوضى بحثية في إطار منظومة العملية التفسيرية؛ فالمنهج إذاً يراد به الدليلة ولو بنحو ما[٤].

---

(١) منهج البحث الأدبي ـ د. علي جواد الطاهر: ص١٩.

(٢) المدخل إلى مناهج البحث العلمي ـ د. محمد قاسم: ص٥٢.

(٣) مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني ـ ستار جير حمود: ص٢٠.

(٤) أصول البحث ـ الشيخ عبدالهادي الفضلي: ص٥٢ـ٦٦.

ففي مناهج تفسير القرآن هناك من يعتمد الآيات القرآنية كدليل في منهجه، كما هو الحال في تفسير القرآن بالقرآن، وهناك من يعتمد الأدلة الروائية كما في تفسير القرآن بالروايات، وهناك من يعتمد الأدلة العقلية كما هو في تفسير القرآن بالعقل، وهناك من يعتمد على النظرة الشخصية كما في تفسير القرآن بالرأي.. وهكذا.

فعلى هذا الأساس اقتصر تقسيمنا لأشهر المناهج التفسيرية للقرآن من حيثية دليلها، أي: مصدرها المعرفي الأول، فقسمناها كالتالي:

١ـ منهج تفسير القرآن بالقرآن.

٢ـ منهج التفسير الروائي أو الأثري.

٣ـ المنهج العقلي أو الاجتهادي.

٤ـ منهج التفسير الإشاري.

٥ـ منهج التفسير بالرأي[١].[٢]

---

(١) التفسير بالرأي لا يمكن اعتباره من مناهج التفسير؛ ولكننا أوردناه لأن الكلام يقع في المناهج التفسيرية بصورة عامة، ولرده والتحذير من خطره كما فعل عليه السلام.

(٢) قُسِّمت المناهج والاتجاهات التفسيرية تقسيمات من جهات مختلفة مثلاً: من جهة المذاهب (تفسير الإسماعيلية، السنة، الشيعة..)، من جهة الألوان التفسيرية (التفسير الفقهي، الأدبي، الاجتماعي، الفلسفي..)، من جهة الكتابة التفسيرية (التفسير الموضوعي، الترتيبي، المختصر...).. وغيرها.[التفسير والمفسرون ـ محمد هادي معرفة: ص٢٤٨ـ٢٥٥]

الأول: منهج تفسير القرآن بالقرآن[١]

أولاً: تعريفه

يعتبر هذا المنهج من أقدم المناهج التفسيرية للقرآن، ولا ريب في أنه لا يوجد مفسّرٌ قد تنصّل تفسيره عنه؛ حتى الذين لم يتخذوه منهجاً خاصاً بهم استعملوه في تفسيرهم ولو بالجملة.

وعرّفه المختصّون به بتعاريف عديدة لم تخرج في مجملها عن كونه مقابلة الآية بالآية، وجعلها شاهداً لبعضها على الآخر؛ ليُستدلَّ على هذه بهذه في معرفة مراد الله ﷻ من كلامه[٢].

وليس مقصودهم بمقابلة الآية بالآية ضرب القرآن بعضه ببعض، بل سرد (الآيات المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، ونضدها تدبراً. أن يجعل كلاً دبر الأخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى.. ناظراً إلى الآية نفسها، ثم ما تحتفُّ بها)[٣] من مفردات وجمل، وما يوافقها قبلها وبعدها، والنظر إلى نظائرها التي لها نفس معناها أو قريبة منها.

---

(١) يمكن ملاحظة هذا المنهج من التفاسير في التفاسير الموضوعية والترتيبية، منها: الميزان في تفسير القرآن للعلامة محمد الطباطبائي، والفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة للدكتور الصادقي.

(٢) المنهج الأثري ـ هدى أبو طبرة: ص٦٥.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ـ الدكتور محمد الصادقي: ج١ المقدمة ص٢٦.

فالوجه العام الذي انطوى عليه هذا المنهج، هو توضيح آيات القرآن بواسطة آيات أخرى، وبيان المقصود منها.

وعليه، فإن المصدر الأساسي في الكشف عن آيات القرآن هو القرآن نفسه.

وأما السنة: فبعضهم قال بعدم حاجة القرآن لها، وبعضهم اعتبرها وسيلة كاشفة عن مفهوم الآية بشرط ملائمتها لمتن القرآن لأنه الأصل، وقطعية صدورها وإلا فلا اعتبار لها. وهي ـ أي السنة ـ بتمام هذا اللحاظ ليست مصدراً وإنما قرينة كاشفة فقط[1].

ثانياً: أدلة أصحابه

استدلّ أصحاب هذا المنهج على جواز ولزوم هذا التفسير بأدلة عديدة، ومنها:

١ـ استخدم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام هذا المنهج في تفسير القرآن:

أ ـ ما ورد بأسانيد: عن زرارة ومحمد بن مسلم أنهما قالا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي وكم هي؟

(١) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ـ الدكتور محمد الصادقي: ج١ المقدمة ص٢٥.

فقال عليه السلام: «إن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ﴾[1]، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر.

قالا: قلنا له: إنما قال عز وجل: ليس عليكم جناح ولم يقل: افعلوا؟ فكيف أوجب ذلك؟

فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عز وجل في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[2]؛ ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟ لأن الله عز وجل ذكره في كتابه وصنعه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكره الله تعالى في كتابه»[3].

ب ـ عن أبي حمزة الثمالي قال: دخل قاضٍ من قضاة أهل الكوفة على علي بن الحسين عليه السلام، فقال له: جعلني الله فداك! أخبرني عن

---

(١) سورة النساء: (١٠١).

(٢) سورة البقرة: (١٥٨).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢ ص٢٧٦ ب٣٣/ ما يمكن أن يستنبط من الآيات.. ح٢٦.

قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[1].

فقال له عليه السلام: «ما يقول الناس فيها قبلكم؟

قال: يقولون: إنها مكة.

فقال عليه السلام: وهل رأيت السرق في موضع أكثر منه بمكة.

قال: فما هو؟

قال عليه السلام: إنما عنى الرجال.

قال: وأين ذلك في كتاب الله؟

فقال عليه السلام: أو ما تسمع إلى قوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾[2]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾[3]، وقال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾[4]؛ أفيسأل القرية أو الرجال أو العير؟ قال: وتلا عليه آيات في هذا المعنى.

قال: جعلت فداك! فمن هم؟

---

(١) سورة سبأ: (١٨).

(٢) سورة الطلاق: (٨).

(٣) سورة الكهف: (٥٩).

(٤) سورة يوسف: (٨٢).

قال عليه السلام: نحن هم.

فقال عليه السلام: أوَما تسمع إلى قوله: ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِين﴾[١]؟ قال عليه السلام: آمنين من الزيغ»[٢].

٢ـ الروايات التي يظهر منها الإشارة إلى تفسير القرآن بالقرآن، منها:

قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، لا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»[٣].[٤]

٣ـ أن القرآن لا يحتاج إلى الغير؛ لأنه كيف يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه؟

فيظهر من الآيات التي دلت على أن القرآن نور وهدى، وفيه تبيان كل شيء عدم احتياجه للغير، واحتياج الغير إليه؛ فقد قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى

(١) سورة سبأ: (١٨).

(٢) الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي: ج٢ ص٤٢.

(٣) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٢ ص١٧ خ(١٣٣).

(٤) المناهج التفسيرية في علوم القرآن ـ الشيخ جعفر السبحاني: ص١٤٣.

وَالْفُرْقَانِ﴾[١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٢].

فهو كامل مكمّل من جميع الجهات ـ ومكمِّل بالكسر ـ، وممّا يناله الفهم العادي أيضاً؛ فلو لم يكن كذلك لما أمر الله ﷻ الناس بتدبره والتأمل فيه لمعرفة الحق، ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن﴾[٣]؛ إذ لو كان يحتاج إلى الغير للزم ألا يكون التدبر فيه موصلاً إلى أن هذا الكتاب منه، وهو خلاف ما دلت عليه الآية السابقة[٤].

٤ـ أن القرآن محفوظ من التحريف والزيادة والنقصان، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥]؛ أما السنة فلم تسلم من الوضع والتحريف والدس، وهذا واضح في سبب وضع القواعد والضوابط التي على مدارها يأخذ هذا الحديث من ذاك، كقواعد علم الرجال وغيره[٦].

---

(١) سورة البقرة: (١٨٥).

(٢) سورة النساء: (١٧٤).

(٣) سورة النساء: (٨٢).

(٤) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج١ ص١٤.

(٥) سورة فصلت: (٤٢).

(٦) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ـ الشيخ محمد الصادقي: ج١ ص٢٦.

ثالثاً: موارد استخدامه

وأما استخداماتهم للقرآن في تفسير القرآن فهناك العديد منها[١]، نكتفي بذكر موردين فقط:

الأول: النظر إلى خصوص مادة أو هيئة اللفظ في الآيات.

يوجد في القرآن العديد من الآيات المبهمة في موضع والمبينة في موضع آخر، ومن خلال النظر إلى قرينة التناسب اللفظية بينهما ـ أو حتى المعنوية في موارد ـ يمكن رفع جزء من الإبهام أو الغموض المتلف حول الآية.

كاتضاح المراد حين الجمع بين المطلقة والمقيدة، مثل: كلمة الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[٢] جاءت مطلقة، وقُيِّدَ هذا الإطلاق في غيرها من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٣].

---

(١) من هذه الاستخدامات: إرجاع المتشابهات إلى المحكمات، حمل الآيات المطلقة على المقيدة، والعامة على الخاصة، تعيين مصداق الآية بواسطة الآيات الأخرى.. وغيرها.

(٢) سورة البقرة: (٤٣).

(٣) سورة الإسراء: (٧٨).

وكاتضاح المراد في حين وضع العامة بجانب المخصصة لها، مثل: جاء النكاح بصورة عامة ترخص الزواج من جميع النساء في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء﴾[1]، وخُصِّصَ هذا العموم باستثناء الأم والأخت.. في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلا ۞ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

الثاني: النظر إلى اتصال الكلام وارتباطه، وهو ما يعرف بالسياق[3].

---

(١) سورة النساء: (٣).

(٢) سورة النساء: (٢٢-٢٣).

(٣) السياق هو: «كل ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه من دوال أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكّل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاماً واحداً مترابطاً، أم حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع».[دروس في علم الأصول- السيد محمد باقر الصدر: ص١٠٣].

وهذا الأسلوب شائع جداً في فهم آيات القرآن حتى عند غيرهم من مفسري المناهج الأخرى. ويقوم أساسه على إدراك معنى كلمة معينة من خلال النظر إلى ما قبلها وما بعدها من الكلمات، ثم انتزاع مفهوم يتوافق مع سياق أطراف ومحيط الآية.

وهذا يحدث أيضاً لاكتشاف معنى الآية في ضمن ما قبلها وما بعدها من الآيات أو السور[١]، مثل: كلمة (كتاب) في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[٢] لا تدل على معنى القرآن كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[٣]؛ بل جاءت بمعنى الرسالة بين شخصين، وقد فهم هذا المعنى من سياق الآية.

رابعاً: الآراء فيه

اختلفت الآراء في مدى استقلال وشمولية هذا المنهج، وفي عدم حاجته للغير:

---

(١) مناهج التفسير واتجاهاته ـ محمد علي الرضائي: ص٧٥.

(٢) سورة النمل: (٢٩ـ٣٠).

(٣) سورة المائدة: (١٥).

فمنهم من قال بعدم احتياج القرآن للغير في تفسيره، حتى الأحاديث أبعدها عن ساحته تلافياً لمحذور الدور، ولم يعتبر ذلك من نوع التفسير بالرأي:

(المحصّل أن المنهي عنه، إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن، واعتماد المفسر على نفسه، من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، وهذا الغير لا محالة، إما هو الكتاب، أو السنة، وكونه هو السنة ينافي القرآن، ونفس السنة الآمرة بالرجوع إليه وعرض الأخبار عليه، فلا يبقى للرجوع إليه والاستمداد منه في تفسير القرآن إلا نفس القرآن)[1].

ومنهم من قال بحاجة القرآن إلى غيره من الدلائل لدرك معانيه: (على المفسر أن يجري مع الآية حيث تجري، ويكشف معناها حيث تشير، ويوضح دلالتها حيث تدل.. وسيجد القارئ أني لا أحيد في تفسيري هذا عن ظواهر الكتاب ومحكماته، وما ثبت بالتواتر أو بالطرق الصحيح من الآثار الواردة عن أهل بيت العصمة من ذرية الرسول ﷺ، وما استقل به العقل الفطري الصحيح الذي جعله الله حجة

(١) هذا قول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، بعدما ذكر روايات مفصّلة حول روايات التفسير بالرأي في ما يتعلق بالآيات (٧-٩) من سورة آل عمران. [ج٣ ص٨٩].

باطنه كما جعل نبيه ﷺ وأهل بيته عليهم السلام حجة ظاهرة، وسيجد القارئ أيضاً أني كثيراً ما استعين بالآية على فهم أختها، واسترشد القرآن إلى إدراك معاني القرآن، ثم أجعل الأثر المروي مرشداً إلى هذه الاستفادة)[1].

خامساً: إلماعة مقتضبة في هذا المنهج

لا ريب أن هذا المنهج من أقدم مناهج التفاسير؛ ولكن حصر التفسير به دون غيره من المناهج دعوى يصعب الالتزام بها؛ لأن:

أولاً: فهم وقراءة النصوص القرآنية بالأساليب التي يقومون بها لا تورث القطع أو الاطمئنان بناتج العملية التفسيرية المنطوية على المنطق اللغوي كأساس في التعامل مع النص[2].

لا سيّما أن لوازم هذا المنهج تفيد أن المعصومين عليهم السلام ليسوا بمفسرين للقرآن، وقاعدة تفسير القرآن بالقرآن وإن كانت تعميماً إحصائياً؛ أي: إن مصاديقها تنال بالاستقراء؛ لكنها صعبة الحصول إلا لمعصوم.

---

(١) هذا قول السيد أبو القاسم الخوئي في مقدمته البيان في تفسير القرآن: ص١٢-١٣.

(٢) دراسات في تفسير النص القرآني - مجموعة من الباحثين: ج١ ص١٥١.

وقد طرح بعض العلماء هذا القول، ومن جملتها ما قاله الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره:

(أن القرآن منه ما يعرف من اللغة بحيث لا يحتاج إلى فهمه إلى سماع، مثل: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ﴾[1]، ومثل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2]، فلو وَرَدَ ما يدل على إباحة قتل النفس المحرمة بغير حق عُلِمَ أنه باطل، وما يدل على إلهين كذلك.

ومنه مجمل يحتاج إلى تبيينه وتفصيله، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[3]، يحتاج إلى بيان عدد الركعات وأحكامها، ومقدار النصاب ووقته وغير ذلك، فهذا لا يعرض عليه الخبر، ولا يشهد بإجماله بتصديق الخبر.

نعم، الأمر بالصلاة ووجوبها، ووجوب الزكاة مثلاً من حيث الفرض يعرض عليه، ويشهد بالتصديق إلى غير ذلك من النظائر.

وهنا وجهٌ، وهو أعجبها يكاد لا يهتدي إليه ولا إلى الاستدلال به إلا الأقلُّون، وهو أن من القرآن حروفاً جامعة ليست صورة الآحاد،

---

(١) سورة الأنعام: (١٥١).

(٢) سورة محمد: (١٩).

(٣) سورة البقرة: (٤٣).

وانطوت على ما لا يكاد يتناهى من الأفراد، قد عرفت من حيث جزئيَّتها من اللغة، بحيث لا يجهلها أحد، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1]، ومثل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2]، ولهذا قال ﷺ: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثم ولم يتدبّرها»[3].

فلو كانت مما يتوقف فهمها على السماع لما ذم من لم يتدبرها، فإن كل من عرف اللغة العربية أولى معرفة عرف أن مفادها إثبات الوحدة لله ونفي الكثرة، ولم تعرف تلك الحروف من حيث كليتها في بادئ الرأي.

فإذا نظر فيها أولئك الأقلون ـ وهم الذين إليهم النظر لا غيرهم، فإن من سواهم رعاياهم وأنعامهم ـ عرفوا كليتها، فلو ورد خبر مثلاً دلّ على قدم الكلام ـ بمعنى: أنه غير محدث ولا مصنوع ـ وعرضه أولئك الأقلون؛ عرفوا أنه إن لم يكن محدثاً ـ بمعنى: المصنوع ـ تعددت الآلهة، وكذلك لو ورد خبر بقدم المشيئة كذلك.

---

(١) سورة الأنعام: (١٩).

(٢) سورة محمد: (١٩).

(٣) المحجة البيضاء ـ الفيض الكاشاني: ج٢ ص٤٠٢ ك/ ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل ب٢/ فضيلة قيام الليل.

ونظائر هذه الحروف في القرآن كثير، وهو المشار إليه في أمرهم عليهم السلام بالعرض على السنة، مثل: (لا تنقض اليقين بالشك أبداً)، ومثل: (إلا بيقين مثله)، فإذا ورد خبر يدل على نفض اليقين بالشك، في غير ما استثني من الثلاث المسائل: البلل المشتبه، وغسالة الحمام، وغيبة الحيوان، وورد خبران متعارضان، أحدهما مطابق والآخر مفارق؛ فما شهدت له السنة من مثل: (لا تنقض اليقين بالشك)، ومثل: (الناس في سعة ما لم يعلموا).. إلى غير ذلك، وهو كثير في الأصول والفروع؛ فهو حقٌّ وإلا فباطل.

وأما قول بعضهم أن التمييز بين محكم القرآن ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ومجمله ومبينه لا يعلم من غير المعصوم عليه السلام، وكذا قول محمد أمين في الفوائد المدنية، من أن المراد به عرض الحديث الذي جاب به غير الثقة على واضحات كتاب الله، التي هي من ضروريات الدين والمذهب، فساقط من عين الاعتبار.

فالعرض على الكتاب على مثل ذلك مما لا يحتاج إلى الخبر في فهم المراد منه، سواء كان من اللغة أو بالإلهام، كما قال علي عليه السلام: «إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، أو بإخلاص العمل وحسن

المعرفة»[١]، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، وقول الصادق عليه السلام: «ما من عبد حبّنا وزاد في حبّنا وأخلص في معرفتنا وسُئل عن مسألة، إلَّا نفثنا في روعه جواباً لتلك المسألة»[٤].

وقد تقدم أو عرفت بالآثار المستفيضة بحيث إفادة العلم أو يعلم كون هذه الآية من المحكمات، أو عرف بالإجماع أو غير ذلك من طرق اليقين، فالعرض بهذا النحو لا يستلزم الدور)[٥].

فمفاد كلامه قدس سره:

أ ـ أن الدور منتفٍ لاختلاف المتعلق في الموضعين: موضع عرض المتشابه من الآيات على الروايات المتواترة والموافقة بالقرائن لضروري الدين والمذهب، وموضع عرض الروايات المتشابه على محكمات القرآن؛ فمورد العرض مختلف الموضوع، (متشابه على محكم، ومحكم على متشابه).

---

(١) جامع السعادات ـ ملا محمد النراقي: ج٣ ص٢٩٨.

(٢) سورة البقرة: (٢٨٢).

(٣) سورة يوسف: (٢٢).

(٤) الرسائل الأحمدية ـ الشيخ أحمد آل طعان القطيفي: ج٣ ص١١٨.

(٥) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٣٧ـ٢٣٩.

ب ـ لا اعتبار فيما ذهب إليه البعض[١] في رفض الأخذ بظواهر الكتاب[٢].

جـ ـ لمعاني القرآن وجوه: منها ما يكون ظاهره مطابق لمعناه، وكل من عرف اللغة التي خوطب بها عرف معناه، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾[٣]، ومثل ـ ما ذكره قدس سره ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ﴾[٤]، وهذا لا يحتاج إلى الخبر في تفسيره؛ لأنه محكم واضح المعنى لا اشتباه فيه، وهو حجة لمن لا يحصر الفهم فيه.

---

(١) تمسك الكثير من الأخباريين بعدم حجية ظواهر القرآن من دون الأخذ بنظر الاعتبار روايات المعصومين عليهم السلام لأنهم المخاطبون الحقيقيون، وقالوا: إن القرآن يحتوي على مضامين عالية لا يفهمها إلا الراسخون في العلم. وقد رد عليهم الأصوليون وفصلوا إشكالاتهم في مباحثهم وبإسهاب. [انظر/ كفاية الأصول ـ الآخوند الخرساني: ج٢/ مبحث حجية الظواهر ص٤٠٥. فرائد الأصول ـ الشيخ مرتضى الأنصاري: ج١ ص١٤٠].

(٢) في قوله هذا نكتة هامة: هي ردّ ما ينسب إليه من أنه إخباري المنهج، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، أخذه بظاهر الآيات دليل على مغايرة منهجه العرفاني الذي استند عليه كأداة كاشفة في مباني مدرسته الحكمية عن منهج الصوفية، وسوف يتضح ذلك حينما يأتي الكلام في بيان المنهج الإشاري في تفسير القرآن.

(٣) سورة الإخلاص: (١).

(٤) سورة الأنعام: (١٥١).

ومنها مجمل لا يمكن الحصول على المراد من ظاهره، وهو ما يحتاج إلى الدلائل كالخبر في تبيينه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[١]، ومثل ـ ما ذكره قدس سره ـ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾[٢].

ثانياً: تواتر العديد من الروايات التي دلت في صريح منطوقها على أنهم ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ المفسرون للقرآن، ويجب الرجوع إليهم، ولا يجوز تفسيره من دون أثرهم كما ورد عنهم ـ صلوات الله عليهم ـ: «أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح، والنص الصريح»[٣]، ودلالة جميع تلك المتواترات تفيد حاجة القرآن إليهم، والتغاضي عنها يُعدّ إهمالاً ولو في جزء من دورهم التشريعي والتكويني.

ثالثاً: لو كان القرآن لا يحتاج إلى مفسر لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، فإنكار الحاجة يستدعي عبثية دلالة مثل هذه الآية، وهذا أمر لا يقبله الجاهل فضلاً عن العالم.

---

(١) سورة آل عمران: (٩٧).

(٢) سورة البقرة: (٤٣).

(٣) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج٢٧ ص٢٠٤ ك/ القضاء ب/ عدم استنباط الأحكام النظرية من ظواهر الكتاب ح٧٨/٣٣٦٠٩.

(٤) سورة النحل: (٤٤).

رابعاً: صرح بعض العلماء الأعلام أن تفسير القرآن بالقرآن من دون وضع اعتبار لقرائن الدلائل العقلية أو النقلية يعتبر من التفسير بالرأي[١].

وعلى أي حال، لا يمكن ردّ أصل هذه العملية التفسيرية؛ خصوصاً في ما يستفاد منها بشكل عام من نوع التفسير الظاهري[٢] الكاشف عن وجه معيّن من وجوه معنى الآية؛ ولكن دعوى عدم الحاجة إلى تفسير القرآن غير نفسه من لوازم يقتضي الحصر، وهذه تحتاج إلى إعادة تأمل ونظر.

(١) البيان ـ آية الله الخوئي: ص٢٦٩.

(٢) سوف يأتي الكلام عن التفسير الظاهر والتفسير الباطن وفروعها لاحقاً.

الثاني: منهج التفسير الروائي أو الأثري[١]

الأول: تعريفه

يقصد بمنهج التفسير الروائي هو تفسير القرآن بالسنة؛ أي: إن المصدر الأول في الاستفادة من تفسير القرآن هو قول وفعل وتقرير المعصوم عليه السلام - النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام -.

فما يصدر منه عليه السلام - من الكلام، أو ما يقوم به من فعل يتعلق بتفسير الآية الخاصة بها، كالصلاة مثلاً: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٢]، أو ما يصدر عن شخص من فعل أو كلام طبقاً لبعض الآيات في حضوره فيقره بفعل أو سكوت عن ذلك الفعل أو القول - يكون مفسراً للآية[٣].

ثانياً: أدلة أصحابه

استدل أصحاب هذا المنهج على وجوب لزوم تفسير القرآن بالسنة بأدلة عديدة، منها:

---

(١) يمكن ملاحظة هذا المنهج من التفاسير في التفاسير الروائية، مثل: تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني، وتفسير نور الثقلين لعبد علي بن جمعه العروسي الحويزي.

(٢) عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور الأحسائي: ج٣ ص٨٥ ب/ الصلاة ح٧٦.

(٣) مناهج التفسير واتجاهاته - محمد علي الرضائي: ص٩٥.

١ـ أن القرآن وتفسيره خاص بأهله، وهو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[١]، وقال أبو جعفر عليه السلام: «وأما الاهتداء فبولاة الأمر، ونحن هم، فإنما على الناس أن يقرؤوا القرآن كما أنزل، فإذا احتاجوا إلى تفسيره فالاهتداء بنا وإلينا»[٢].

٢ـ أن القرآن يحتوى على مضامين عالية لا يمكن لعقول البشر إدراكها من دون الرجوع إليهم عليهم السلام، كما قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا جابر، إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً، ثم قال: يا جابر، وليس شيء أبعدُ من عقول الرجال منه»[٣]

٣ـ أن القرآن يشتمل على العديد من المتشابهات، ومؤداه المنع من الأخذ بظاهره من دون الرجوع إليهم عليهم السلام.

٤ـ أن روايات المنع من التفسير بالرأي تدلل على وجوب الرجوع إليهم، فعن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن محمد بن سنان،

---

(١) سورة النحل: (٤٤).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٧ ص١٩٧ ب٧/ أنه لا تقبل الأعمال إلا بالولاية ح٦٠.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص٩٤ ك/ القرآن ب٨/ أن للقرآن ظهراً وبطناً، وأن علم كل شيء في القرآن وأن علم ذلك كله عند الأئمة عليهم السلام ح٤٥.

عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر عليه السلام فقال: «يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟

قال: هكذا يزعمون.

فقال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنك تفسر القرآن؟

فقال لهُ قتادة: نعم.

ثم ذكر الإمام مسائل إلى أن قال: ويحك يا قتادة! إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك، فقد هلكت، وأهلكت، وإن كنت قد أخذته من الرجال، فقد هلكت، وأهلكت... ويحك يا قتادة! إنما يعرف القرآن من خوطب به»[1].

ثالثاً: موارد استخدامه

هناك موارد عديدة يستخدمها أصحاب هذا المنهج، نكتفي بذكر موردين منها فقط[2]:

١ـ لبيان سبب وشأن النزول

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٨ ص٣١٢ ك/ الروضة ح٤٨٥.

(٢) من الاستخدامات للروايات في تفسير الآيات: بيان سبب وشأن النزول، بيان المصاديق والمفاهيم للآيات، بيان تأويل الآية، شرح الأحكام.. وغيرها.

لا يمكن أن نغفل عن الكم الهائل من الروايات التي ذكرت أسباب النزول للعديد من آيات القرآن، فإن لمعرفة سبب وشأن النزول وجهاً كبيراً في جلي ألفاظ الآية، والوقوف على المعنى الحقيقي لها، ومن جملة تلك الروايات:

أ ـ آية القربى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، حيث سأل الإمام الصادق عليه السلام أبا جعفر الأحول عما يقول أهل البصرة في هذه الآية.

فقال أبو جعفر الأحول: يقولون إنها لأقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال عليه السلام: «كذبوا إنما نزلت فينا خاصة في أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء عليهم السلام»[2].

ب ـ وآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا﴾[3]، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «نزلت في فلان وفلان، آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول الأمر، وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية، حين قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من

---

(١) سورة الشورى: (٢٣).

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٨ ص٩٣ ك/ الروضة ح٦٦.

(٣) سورة النساء: (١٣٦).

كنت مولاه فهذا علي مولاه، ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم كفروا حيث مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يقروا بالبيعة، ثم ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم؛ فهؤلاء لم يَبْقَ فيهم من الإيمان شيء»[1].

٢ـ لبيان مصداق الآية ومفهومها

روايات أهل البيت عليهم السلام مشحونة ببيان مصاديق العديد من الآيات والكلمات، ونذكر منها نموذجين فقط:

أ ـ ابن بابويه، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني، قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى، قال: حدثنا عبد الله بن محمد الضبي، قال: حدثنا محمد بن هلال، قال: حدثنا نائل بن نجيح، قال: حدثنا عمرو بن شمر، عن جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فِي السَّماءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها﴾[2].

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٤٢٠ ك/ الحجة ب/ فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية ح٤٢.

(٢) سورة إبراهيم: (٢٤ـ٢٥).

قال: «أما الشجرة فرسول الله ﷺ، وفرعها علي عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله عليها السلام، وثمرها أولادها عليهم السلام، وورقها شيعتنا.

ثم قال عليه السلام: «إن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وإن المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشجرة ورقة»[١].

ب ـ ابن بابويه، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن هارون الزنجاني، فيما كتب إليّ على يدي علي بن أحمد البغدادي الوراق، قال: حدثنا معاذ بن المثنى العنبري، قال: حدثنا عبد الله بن أسماء، قال: حدثنا جويرية، عن سفيان بن سعيد الثوري، قال: قلت لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام: يا بن رسول الله، ما معنى قول الله عز وجل: ﴿طه﴾[٢]؟

فقال عليه السلام: «طه: اسم من أسماء النبي ﷺ، ومعناه: يا طالب الحق الهادي إليه، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لِتَشْقَى﴾[٣]، بل لتسعد به»[٤].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج٣ سورة إبراهيم ص٢٩٧ ح٥/٥٧١٤.

(٢) سورة طه: (١).

(٣) سورة طه (٢).

(٤) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج٣ سورة طه ص٧٤٨ ح٢/٦٩٦٣.

رابعاً: الآراء فيه

اختلفت الآراء في مدى استقلال هذا المنهج بنفسه، وفي عدم حاجته للغير:

فمنهم من اتخذ الروايات المصدر الوحيد في تفسير القرآن، واعتبر كل تفسير يعتمد على الظواهر والدلائل العقلية والاجتهادية والعرفانية من نوع التفسير بالرأي الذي نهى عنه أهل البيت عليهم السلام: (إن القرآن في الأكثر ورد على وجه التعمية بالنسبة إلى أذهان الرعية، وكذلك كثير من السنن النبوية، وإنه لا سبيل لنا فيما لا نعلمه من الأحكام الشرعية النظرية أصلية كانت أو فرعية إلا السماع من الصادقين عليهم السلام. وإنه لا يجوز استنباط الأحكام النظرية من ظواهر كتاب الله ولا من ظواهر السنن النبوية ما لم يعلم أحوالهما من جهة أهل الذكر عليهم السلام، بل يجب التوقف والاحتياط فيهما)[1].

ومنهم من اتخذ الروايات وسيلة وقرينة لتفسير الآيات القرآنية، حيث إنها تشكل مع القرآن حجة واحدة إذا توفرت فيها شروط حجيتها[2].

---

(١) الفوائد المدنية ـ الاسترابادي: ص١٠٦.

(٢) مناهج التفسير واتجاهاته ـ محمد علي الرضائي: ص٧٥.

خامساً: إلماعة مقتضبة في هذا المنهج

مما لا شك فيه حاجة القرآن إلى السنة في تفسيره بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وحديث الثقلين الذي تواتر باستفاضة عند الشيعة والعامة: «يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض»[2].

فقد قال الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره ـ في بيان معنى هذا الحديث ـ:

(إنما عبرَّ بلن في قوله: (لَنْ تَضلُّوا)؛ للدلالة على التأبيد، للتنبيه على أن المأمور بالتمسك بهم معصومون، معصوم من اتبعهم من حيث هو متَّبع، لكون كل واحد من الكتاب ومنهم مبيناً على صاحبه، والكتاب ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[3]، ولو لم يكونوا عليهم السلام معصومين لأتاه الباطل من حيث ينتهي إليهم، فافهم.

---

(١) سورة النحل: (٤٤).

(٢) بصائر الدرجات ـ الصفار: ج٧ ص٤٣٣ ب١٧/في قول رسول الله صلى الله عليه وآله إني تارك فيكم الثقلين.. ح٣.

(٣) سورة فصلت ـ الآية: (٤٢).

ونفي الاقتران بـ(لن) كذلك؛ إشارة إلى أنَّ الكتاب لا يكفي بدونهم، ولا بيان نافع فيه إلاَّ بما بيَّنوا منه، فالعامل به بدونهم نابذٌ له وراء ظهره، والمتمسك به ولم يتمسك بهم؛ ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[1]. لا كما تأوَّله الأغيار الذين لا يُفرقون بالليل والنهار، لتصغي إليه أفئدة الذين لا يُؤمنون بالآخرة، من أن المراد بنفي الافتراق: هو التمسك بالكتاب والمحبة للعترة، وقد تعبدهم الله في كتابه على لسان نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[3]، وبقوله ﷺ: «لا تتقدموهم فَتَزْلُقُوا، ولا تتأخروا عنهم فتزْهَقُوا، ولا تُعلموهم فإنهم أعلم منكم»[4]، إلى غير ذلك)[5].

فلا يمكن الوصول إلى حقيقة المعنى إلا من خلالهم عليهم السلام؛ وسواء كانت السنة مصدراً أم قرينة في تفسير القرآن فلا تنافيَ في ذلك ما دام

---

(١) سورة الرعد: (١٤).

(٢) سورة النحل: (٤٣).

(٣) سورة النساء: (٨٣).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣١ ص٤١٧ ب٢٧/ احتجاج أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ على جماعة من المهاجرين والأنصار.. ح١.

(٥) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٢٤١.

لهم عليهم السلام مدخلية في العلمية التفسيرية، ورأي كاشف عن معنى ودلالة الآية.

أما إهمال حجية ظواهر الكتاب التي أجمع عليها العلماء[١]، فهذا يحتاج إلى إعادة تأمل ونظر.

(١) انظر/ كفاية الأصول ـ الآخوند الخراساني: ج٢/ مبحث حجية الظواهر ص٤٠٥. فرائد الأصول ـ الشيخ مرتضى الانصاري: ج١ ص١٤٠.

الثالث: منهج التفسير العقلي أو الاجتهادي[١]

أولاً: تعريفه

قبل بيان المقصود من مصطلح التفسير العقلي أو الاجتهادي نحتاج إلى فهم دور العقل في كيفية تشكل عملية التفسير لديهم؛ فهو:

١ـ إما أن يقوم بدور الكاشفية؛ أي: يدرك معنى الآية عن طريق جمع الآيات والروايات التفسيرية.

٢ـ وإما أن يقوم بدور المصدرية؛ أي: يدرك معنى الآية عن طريق استنباط بعض المبادئ التصورية والتصديقية عن طريق العقل الاكتسابي، أو عن طريق مدركات العقل التي تشمل جميع الأحكام القطعية العقلية والبراهين والقرائن[٢].

فعلى الأول: يطلق على دور العقل "الفهم العقلي" في تفسير القرآن، وعبروا عنه بمصطلح "التفسير الاجتهادي"، وهو بذل الجهد الفكري أو العقلي باستخدام قوة العقل في فهم آيات القرآن ومقاصده[٣].

---

(١) يمكن ملاحظة هذا المنهج من التفاسير في التفاسير العقلية. مثل تفسير التبيان للشيخ الطوسي، تفسير مجمع البيان للطبرسي.

(٢) تفسير تسنيم ـ الشيخ جوادي آملي: ج١ ص١٦٩ـ١٧١.

(٣) أصول التفسير وقواعده ـ الشيخ خالد عبدالرحمن العك: ص١٦٧.

وعلى الثاني: يطلق على دور العقل "الحكم العقلي" في تفسير القرآن، وعبروا عنه بمصطلح "التفسير العقلي"، وهو التفسير بمعونة المقدمات العلمية وغير العلمية التي يدركها العقل، أو يحكم بها العقلاء[١].

وعليه، عَدّ بعضهم التفسير الاجتهادي قسماً من أقسام التفسير الروائي؛ لأن المرتكز الأولى فيه هو الروايات، وما للعقل إلا دور الكاشفية في عملية التفسير[٢].

وعَدّ بعضهم التفسير العقلي قسماً من أقسام التفسير بالرأي؛ لأنه اجتهاد عقلي قائم على أساس الذوق والنظر الشخصي من دون مراعاة للقرائن الأخرى في التفسير[٣].

وهنا نكتة هامة نلفت النظر إليها، وهي:

لو نظرنا إلى دور قوة العقل في تفسير القرآن بشكل مطلق؛ فإن المناهج التفسيرية من هذا اللحاظ سوف تكون جميعها عقلية؛ ولكن

---

(١) القرآن في الإسلام ـ العلامة الطباطبائي: ص٦٤.

(٢) تفسير تسنيم ـ الشيخ جوادي آملي: ج١ ص١٦٩ـ١٧١.

(٣) المبادئ العامة لتفسير القرآن ـ محمد حسين علي الصغير: ص١٠٥.

على الرأي المشهور، فالتفسير الاجتهادي إما مرادف للتفسير العقلي، أو قسم من أقسامه[١].

ثانياً: أدلة أصحابه

استدلّ أصحاب هذا المنهج على جواز استخدام العقل في تفسير القرآن بأدلة عديدة، منها:

١ـ دعوة العديد من الآيات القرآنية إلى التعقل والتفكر فيها ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢]، وذم الذين لا يفعلون ذلك؛ دليل على اعتبار منزلة العقل في فهم النص القرآني، وإلا لكان هذا الخطاب عديم الفائدة ومن دون أي معنى.

٢ـ أن أهل البيت عليهم السلام استخدموا التفسير العقلي للدلالة على معاني الآيات، منها: عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إن الله كما وصف نفسه أحد، صمد، نور ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٣].

فقلت له: أفله يدان هكذا؟ ـ وأشرت بيدي إلى يده ـ.

---

(١) مناهج التفسير واتجاهاته ـ محمد علي الرضائي: ص١٦٦.

(٢) سورة يوسف: (٢).

(٣) سورة المائدة: (١٤).

فقال عليه السلام: لو كان هكذا كان مخلوقاً»[١].

٣ـ قلة الروايات التفسيرية وعدم كفايتها في تفسير جميع الآيات، أضف إلى ذلك عدم اعتبارية الكثير منها، وتعطيل فهم الآيات القرآنية التي لم يرد لها تفسير يتنافى مع هدف تدبر آيات القرآن للاستمداد من مضامينه الإيديولوجية الصحيحة التي توصل العامل بها إلى شاطئ الأمان، فمن أجل ذلك لا يوجد طريق غير استخدام العقل والاجتهاد في هذه الآيات[٢].

ثالثاً: موارد استخدامه

هناك العديد من الموارد التي يستخدمها أصحاب هذا المنهج في تفسير القرآن، نكتفي بذكر ثلاثة منها:

١ـ إرجاع ما خالف الدليل العقلي من ظواهر الآيات إلى البراهين العقلية، كما مر في تفسير الآية: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٣]، فالعقل يتوصل إلى أن الله عز وجل منزّه عن الجسمية من خلال حكم البراهين العقلية التي تنفيها عنه عز وجل.

---

(١) مسند الإمام الرضا ـ الشيخ عبدالعزيز عطاري: ج١ ص٥٨ ك/ تفسير القرآن ب/معنى بسم الله ص٣٢٨.

(٢) مباني وروشهاي تفسير قرآن ـ الأستاذ عميد الزنجاني: ص٣٤٩.

(٣) سورة المائدة: (١٤).

٢ـ فهم وتفسير الآيات التي لم يرد في شأنها روايات تفسيرية.
٣ـ تأويل الآيات المتعلقة بالأمور الغيبية[١].

رابعاً: الآراء فيه

اختلفت الآراء في دور العقل في العملية التفسيرية:

فمنهم من قال إنه مصدر مشرّع في تفسير القرآن: (التفسير الاجتهادي يعتمد العقل والنظر أكثر مما يعتمد النقل والأثر؛ ليكون المناط في النقد والتمحيص هو دلالة العقل الرشيد والرأي السديد)[٢].

ومنهم من قال إنه قرينة كاشفة: (المقصود من التفسير بالعقل، هو الاستفادة من القرائن العقلية الواضحة التي تكون مورد قبول جميع العقلاء لفهم معاني الألفاظ والجمل، ومن جملتها القرآن، والحديث)[٣].

خامساً: إلماعة مقتضبة في هذا المنهج

إن النزاع على نتائج الاستدلالات العقلية واقع في مختلف مجالات

---

(١) تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا: ج١ ص٣٤٧.
(٢) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ـ الشيخ محمد هادي معرفة: ج٢ ص٢٤٩.
(٣) تفسير به رأي ـ الشيخ مكارم الشيرازي: ص٣٨.

الفكر تقريباً، ولسنا بصدد ذكر جزئيات هذا النزاع لأنه موكل لكتب المطولات.

وما نحن فيه ـ تفسير القرآن بالعقل ـ يحتاج إلى وقفه تأمل في مدى تحصّن العملية التفسيرية، بيد أن لوازمها يعوزها عاصم يعصم دلالاتها من الحيّد إلى جانب التفسير بالرأي أثناء استخلاص المراد من النص القرآني.

فنسأل: هل يُقدم المفسر أساس نتائج العقل، ثم يقوم بإلصاق النص القرآني أو النص النبوي على نتائجه من أجل تدعيمه؟

أم أنه يتناول النص القرآني المراد تفسيره وينطلق منه كأسس، وما العقل إلا أداة من لوازمه مضبوطة بميزان الشرع، ولها دور المساهمة في الكشف عن مراد النص القرآني فقط؟

إن كان الأول: فلا شك بأن هذه العملية تطبيق وليست تفسيراً، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، مهما كان للعقل من قيمة وحجة فهو تابع للشرع وليس بمتبوع؛ لأن قصوره في إدراك بعض الحقائق الكونية لا ينكره إلا جاهل أو معاند.

فمثلاً، انظر كيف تاه وضاع البعض حينما تجرى على تفسير بعض الحقائق الغيبية بمعزل عن الشرع؛ كقضية المعاد الجسماني وغيرها.

بل انظر كيف تبددت قدرتهم أمام تفسير حقائق الأشياء المادية؛ كإعطاء تفسير لتركيب وحياة بعض المخلوقات الدقيقة.

وما كان هذا أمره أمام تفسير الحوادث، فكيف يمكنه تفسير كلام الله ﷻ والوصول إلى مراده؟

فالواجب على من أراد أن يعرف الله ﷻ، أو يعرف كلماته (بعقله؛ فليعرفه بما وصف به نفسه، ولا وصف نفسه إلا على ألسنة أوليائه عليهم السلام، فالواجب أن ينظر فيما قالوا، ويفهم ما أرادوا. وأما من لم ينظر في ذلك، ويريد أن يعرف الله سبحانه، فإنه لا يقع فهمه إلا على الباطل)[1].

وإن كان الثاني: (الذين يعتقدون بعقولهم بما علمهم الله تعالى، وأخبرهم نبيه صلى الله عليه وآله وأوصياؤه عليهم السلام، فإنهم لا يكادون يختلفون؛ لأن كلام الله سبحانه وكلام نبيه وأهل بيته ـ عليه وعليهم السلام ـ يجمعهم)[2].

---

(١) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٨٩.

(٢) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٨٨.

الرابع: منهج التفسير الإشاري[١]

أولاً: تعريفه

الإشارة لغة: العلامة والإيماءة[٢].

واصطلاحاً: استفادة شيء من كلام غير مذكور في ظاهره، فهي أشبه ما تكون بالدلالة الالتزامية للكلام[٣].

أما المقصود بالمنهج الإشاري في تفسير القرآن، فهو تأويل آيات القرآن الكريم على غير ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية تظهر لأهل العلم والسلوك، تقوم على التطابق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات القرآنية بوجه من الوجوه الشرعية[٤].

والظاهر أن أكثر منهج تلقى تصدياً ومعارضةً من قِبل الغير في ما أنتجه من تفاسير قرآنية ـ ومعارف أخرى خاصة بحقله ـ هو هذا المنهج؛

---

(١) يمكن ملاحظة هذا المنهج من التفاسير في التفاسير العرفانية مثل: تفسير القمي للشيخ أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، وفي تفاسير الصوفية مثل: عرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد روزبهان البقلي الشيرازي.

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ـ الشيخ حسن المصطفوي: ج١ص١٤٩.

(٣) دروس في المناهج التفسيرية للقرآن ـ محمد علي الرضائي: ج١ ص١٩٢.

(٤) أصول التفسير وقواعده ـ خالد عبدالرحمن العك: ص٢٠٥.

والسبب يكمن في مرتكزاته التي أطرت الرؤية الكونية، وأفضى استعمالها في الكشف عن ألفاظ القرآن إلى معان باطنية؛ منها ما لا يتلاءم مع ظواهر القرآن، ومنها ما يحتاج إلى دليل في إثباته.

وقد انقسم الرأي حول نتائجه إلى قسمين:

الأول: ردّ جميع ما جاء منه جملة وتفصيلاً واعتبره من أنواع التفسير بالرأي[١].

الثاني: ميّز حصيلة نتائجه بقبول الصحيح الذي استند على الأدلة الشرعية والعقلية، ورد ما كان خالياً من ذلك[٢].

وبغض النظر عن التسميات التي لحقت أصحاب هذا المنهج (رمزي، شهودي، فيضي، صوفي، إشاري، عرفاني..)، والمائز الأساسي بينها الذي أحكم إلصاق أحد تلك المسميات عليه؛ فإن جميعها تشترك في أداة واحدة وهي الكشف. ومن ردّ ما جاء به أصحابه أنكر هذه الأداة من أساسها، أما من ميّز ما جاؤوا به فقد انطوى تمييزه على معايرة صحيح هذه الأداة من سقيمها[٣].

---

(١) مباني وروشهاي تفسير قرآن ـ الأستاذ عميد الزنجاني: ص٣١٤.

(٢) أصول التفسير وقواعده ـ خالد عبدالرحمن العك: ص٢١٥.

(٣) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٣.

وعليه، لو أردنا أن نكون دقيقين في الحكم على تفسير هذا المنهج فالأمر يحتاج إلى جهدٍ مضن ـ وهو خارج عن نطاق بحثنا ـ؛ لأنه ليس قائماً على نمط واحد واضح المعالم، بل هو متشعب إلى شعب تاه حتى بعض الباحثين في رصد جميع ما يحمله.

ولكن وإن انطوت تفاسير أصحابه على المعاني الباطنية والتأويلية؛ إلا أن النظرة الكلية ظاهرة في أن هناك من أفرط في تفسير (تأويل) آيات القرآن بصورتها الباطنية، وهناك من راعى المعايير الصحيحة لاكتشاف ذلك الباطن.

وإطلاق الحكم على الجميع بحكم واحد، أو النظر إليهم بنظرة متساوية؛ لا يخلو من التعسف وعدم الإنصاف، فيجب التمييز بينهما، وإصدار حكم لكل واحد منهما بحداته[1].

---

(١) مما لا شك فيه المائز الكبير بين المدارس العرفانية التي شيدت مبانيها على أرض المناهج المنهي عنها شرعاً كمنهج الصوفية؛ حتى كاد لا يستطيع التمييز بين معطياتهما، وبين المدارس العرفانية التي راعت الضوابط الشرعية في ركائزها ومعطياتها. ونحن وإن تطرقنا لهذا الأمر بشكل عام في هذه الجزئية من البحث بذكر شيء قليل من ملامح المدارس المبتعدة عن جادة الصواب، وشيء قليل من ملامح المدارس التي انطوى نهجها على ما جاء به الشرع؛ فما ذلك إلا من أجل إعطاء نظرة شبه كاملة لمبحثنا لا غير. أما في المباحث الآتية (التفسير والتأويل) فسوف نركز على الجانب العرفاني الذي دعا إليه أهل البيت عليهم السلام فقط، وننظر في تأويلاته وضوابطه ونتائجه، ونترك الجانب المنهي عنه الذي لا طائلة من ذكره والبحث فيه.

ثانياً: أدلة أصحابه

استدلّ أصحاب هذا المنهج على طريقتهم ونتائجهم في تفسير القرآن بأدلة عديدة، منها:

١ـ أن القرآن يحتوي على معان وحقائق لا بدّ من التدبر والتأمل والتعمق فيها للحصول على المراد الحقيقي منها، ولا يكون ذلك إلا عن طريق (الاتصال بالباطن الذي هو المعقول والممثول تحت الأمثال والرموز)[١].

أي: إرجاع (تأويل) (المرموزات والحقائق المستورة تحت أوضاع الشريعة إلى ما كانت عليه أولاً، ونردها إلى الحقائق المجردة.. حتى تصير الحقائق مكشوفة الوجه، عارية من الرمز، خارجة عن حجاب الشريعة)[٢].

فقد قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣]، وقال: ﴿فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٤].

---

(١) كشكول الشيخ الأحسائي ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٦٩.

(٢) كشكول الشيخ الأحسائي ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٦٩.

(٣) سورة محمد: (٢٤).

(٤) سورة النساء: (٧٨).

٢ـ تحدثت روايات عديدة عن معان أو مصاديق معينة للآيات تم الإشارة فيها إلى الجانب الباطني[١]، منها:

أ ـ عن محمد بن أحمد بن أبي الثلج، عن الحسين بن أيوب، عن محمد بن غالب، عن علي بن الحسين، عن الحسن بن أيوب، عن الحسين بن سليمان، عن محمد بن مروان الذهلي، عن الفضيل بن يسار قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢] قال: كذلك الله عز وجل، قال: قلت: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ قال لي: محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قال: صدر محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: فيه نور العلم يعني النبوة، قلت: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ قال: علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدر إلى قلب علي عليه السلام، قلت: ﴿كَأَنَّهَا﴾ قال: لأي شيء تقرأ كأنها؟ قلت: وكيف جعلت فداك؟ قال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، قلت: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ذاك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لا يهودي ولا نصراني قلت: ﴿غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال: يكاد العلم يخرج

---

(١) مناهج التفسير واتجاهاته ـ محمد علي الرضائي: ص٢٨٢.

(٢) سورة النور: (٣٥).

من فم العالم من آل محمد من قبل أن ينطق به، قلت: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: الإمام على أثر الإمام»[١].

ب ـ عن يونس ابن يعقوب، عن خلف بن حماد، عن هارون بن خارجة، عن أبي بصير، عن سعيد السمان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[٢]؛ يعني علوياً أتوالى أبا تراب»[٣].

ثالثاً: موارد استخدامه

هناك العديد من الموارد التي يستخدمها أصحاب هذا المنهج في تفسير القرآن[٤]، نكتفي بذكر بعض منها فقط:

١ـ معرفة الله عز وجل، ومعرفة الصراط المستقيم وكيفية السلوك إليه من خلال التفكر في معرفة مقصوده[٥].

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤ ص١٦ أبواب تأويل الآيات.. ب٣/ تأويل آية النور ح٤.

(٢) سورة النبأ: (٤٠).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤ ص٢٥ أبواب تأويل الآيات.. ب٤/ معنى حجزة الله ح٣.

(٤) سوف يكون هناك بيان عن تأويل العرفاء للآيات بشكل وافٍ لاحقاً.

(٥) توشيح التفسير في قواعد التفسير والتأويل ـ الشيخ محمد التنكابني: ج١ ص٣٦.

٢ـ تأويل الموضوعات التي يستعصي على الذهن البشري فهمها بسهولة لدقتها وارتقائها فوق مستوى الحس (المغيبات)؛ كمعنى اللوح، القلم، العرش، المعاد، صفة الجنة والنار، صفة البعث والحشر.. وغيرها.

٣ـ الوصول إلى عمق مقاصد الآيات (باطن باطن القرآن)[١].

رابعاً: الآراء فيه

اختلفت الآراء في مواضع عديدة في هذا المنهج، منها الأخذ بظاهر النص القرآني في العملية التفسيرية:

فمنهم من أخذ بظاهر اللغة ضمن عملية تفسيره للوصول إلى الإشارات الخفية في النص القرآني (الباطن): (فأهل الباطن يراعون الظاهر حرفاً بحرف، ويقصدون معنى لا يخالفه في عين المخالفة، وكل باطن يخالف الظاهر كذلك، فهو باطل مردود)[٢].

ومنهم من قال بأن ظاهر اللغة عاجز عن كشف الغطاء عن وجه المعنى، وأن الطريق الوحيد للوصل إلى حقيقة المعنى (الباطن) منحصر

---

(١) بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم ـ محمود رجبي: ص٢١.

(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٣٤.

بالذوق والإشراق فقط[١]: (وأما المتصوفة فإنهم لاشتغالهم بالسير في باطن الخلقة واعتنائهم بشأن الآيات الأنفسية دون عالم الظواهر وآياته الآفاقية، اقتصروا في بحثهم على التأويل ورفضوا التنزيل... نعم وردت روايات عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام كقبولهم: إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن، أو إلى سبعين بطناً، ولكنهم عليهم السلام اعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن، واعتنوا بأمر التنزيل، كما اعتنوا بشأن التأويل)[٢].

خامساً: إلماعة مقتضبة في هذا المنهج

إن الخلاف الشديد بين الأعلام في مسألة قبول ورد ما أنتجه هذا المنهج قد يكون بحثاً لا نهاية له.

ومع ذلك، فإن التفسير الإشاري ـ اصطلاحاً وما يرادفه من إطلاقات ـ إذا كان المقصود منه: أن للقرآن بطناً ويراد الكشف عن حقائقه، فهذا مما لا مناص من الالتزام به لتضافر العديد من الروايات على وجود باطن للقرآن إلى سبعة أبطن.

---

(١) دراسات في تفسير النص القرآني ـ مجموعة من الباحثين: ج١ ص١٥٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج١ ص٧.

ولكن القبول بذلك لا يعني فتح الباب على مصراعيه بدون وضع ضوابط شرعية وعقلية، ومن أهمها: ألّا يكون هناك ظاهر قرآني أو رواية أو دليل عقلي بديهي مناقض لنتائجه، وأن يتم معايرة الركيزة الأساسية في هذا المنهج ـ وهي الكشف ـ في ميزان القرآن والسنة[1].

أما إذا لم يكن الأمر كذلك، وتضمن إلغاء العمل بظاهر القرآن، وإطلاق نتائج التأويلات من دون ضابطة أو مرجعيات عقلية ونقلية؛ فهو مما لا شك في رفضه جملة وتفصيلاً، ويندرج تحت نوع التفسير بالرأي المنهي عنه.

وللشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره كلمات في تمييز نتائج هذا المنهج المبني على الكشف ـ بشكل مجمل في التفسير وغيره ـ:

قال قدس سره: (أن الكشف على قسمين:

[القسم الأول]: قسم يكشف الناظر به عن حقيقة ما يتدبر فيه وينظر، وليس له لحاظ غير ذلك، فإذا انقطع عمّا سوى تدبّر الآية ظهر له بعض ما فيها من الآيات والعنوانات، لأن كل شيء خلقه الله تعالى في تقدير الله، جعله دليلاً ومدلولاً عليه، وشاهداً ومشهوداً، وكتاباً ومكتوباً، وبياناً ومبيّناً، وتابعاً في تقدير الله ومتبوعاً، وعارضاً

(١) سنذكر ضوابط التأويل الصحيح في منهج العرفاء الذين نهلوا من الطريق المعتبر شرعاً وعقلاً.

ومعروضاً، وعلةً ومعلولاً، وأمثال ذلك. فإذا نظر في الآية متدبراً لها غير ملتفت إلى ما يفهم قبل، ولا إلى قواعد عنده، ولا إلى ما أنست به نفسه من المسائل، فإنه ينفتح له بنسبة إقباله وإخلاصه في إقباله. وما حصل له من الآيات والدلالات، فلا شك، في صحّته وقطعيته، وذلك العلم لَدُنّيٌّ. قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1]، وقال تعالى ـ في الحديث القدسي ـ: «من أخلص لله العبودية أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ...»[2]، وهذا هو الذي يصح فيه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

[القسم الثاني]: وقسم يكشف الناظر به عن حقيقة خصوص مقصوده، فإن انقطع في النظر في الآفاق وفي الأنفس تحصيلاً لتصحيح معاندته ومكابرته للحق، أو للغير حصل له شبهة قوية، وعبارات متينة، وتدقيقات خفية، تؤيد باطله لا يكاد يتخلص منها ويردها، ولا يعرف وجه بطلانها، إلا صاحب الكشف الأول.

---

(١) سورة الأنعام: (٧٥).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٣ ص٣٢٦ ب/ في أن المداومة على العبادة ....

(٣) سورة العنكبوت: (٦٩).

والآفاق والأنفس، وأن كانتا لم يُخلقا باطلاً ولا عبثاً، إلا أنه سبحانه لما أجرى حكمته على الاختبار والامتحان، ليميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١]، ولأن الخبيث يشابه الطيب، قال تعالى: ﴿مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾[٣]، فشبه كلاً منهما بالشجرة، وكذا في آية: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾[٤]، وذلك لما بين الضدين من كمال المعاكسة، حتى إنه يعرف الشيء بضده، وكل ذلك لفائدة التمييز والاختبار، ولذا قال عليه السلام: «فلو أن الباطل خلص لم يَخْفَ على ذي حجى، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيمزجان فيجيئان معاً، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا

(١) سورة العنكبوت: (٦٩).

(٢) سورة إبراهيم: (٢٤).

(٣) سورة إبراهيم: (٢٦).

(٤) سورة الرعد: (١٧).

الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[١]، أو كما قال: فيعرف المعاند من المشابهات شبهاً يؤيّد باطله.

[ثم يكمل قدس سره في بيان بقية أنواع الكشف الباطل]:

[الثاني]: ومثل هذا في عدم الإصابة من انقطع في النظر في الآفاق وفي الأنفس، لتحصيل ما يؤيد ما أنست به نفسه من الاعتقادات أو المسائل، فإنه يحصل له منهما ما يؤيد ما في نفسه.

[الثالث]: ومثل هذا أيضاً مَن كان عنده قواعد وضوابط لما يعلم ويعتقد، فينظر في الآفاق وفي الأنفس ليحصل له ما يقوي ما عنده من العلوم، فإذا ظهر له شيء منهما عرضه على قواعده، فإن وافق قَبِله، وإن خالف تأوّله أو طرحه، ولعل الخطأ في قواعده.

فالكاشف على نحو واحد من هذه الثلاثة [أي من الكشف الباطل] لا يكاد يصيب الحق إلا نادراً، بخلاف الأول [أي الكشف الأول، والذي هو العلم اللدُنّيُّ] فإنه لا يكاد يخطئ الحق، مع أن كل واحد من الأربعة يدعي الصواب، وهي دعوى باطلة، إلا أن يشهد الله سبحانه بصحتها، وذلك بما أنزل في محكم كتابه، وأوحى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وألهم

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٥٤ ك/ فضل العلم ب/ البدع والرأي والمقاييس ح١.

أولياءه أهل البيت عليهم السلام. فإذا اختلفت الأربعة فعليهم الترافع إلى محكم الكتاب والسنة، فمن شهِدا له بالصدق فهو الصادق، ومن لم يشهد له فأولئك هم الكاذبون)[1].

(١) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: ج١ ص٤٣ـ٤٤ـ٤٥.

الخامس: منهج التفسير بالرأي[١]

أولاً: تعريفه

من خلال استقراء الآراء التي قيلت في هذا المنهج، يظهر أن المقصود منه هو تفسير آيات القرآن الكريم من دون مراعاة القرائن العقلية والنقلية، أو تحميل المفسر رأيه الشخصي للقرآن لغرض له[٢]، أو عدم توفر الشروط اللازمة لدى المفسر[٣]، أو حصر معنى من معانيه دون غيره[٤].

ثانياً: أدلة أصحابه

استدلّ أصحابه عليه وعلى صحة ما يتوصل به من نتائج بأدلة عديدة، منها:

١ـ حث الآيات القرآنية على التدبر والتفكر فيها إشارة إلى مسألة الاستنباط عن طريق الاجتهاد والرأي: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٥].

---

(١) إطلاق المنهج التفسيري على هذا النوع من باب المسامحة؛ لأنه بالأساس ليس كاشفاً لمراده عزّ وجلّ.
(٢) تفسير به رأي ـ الشيخ مكارم الشيرازي: ص٢٣.
(٣) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج٣ ص٧٨.
(٤) أجوبة مسائل الآخوند ملا حسين الكرماني ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٣٥٧.
(٥) سورة النساء: (٨٣).

٢ـ أن النبي الأعظم محمد ﷺ لم يفسر جميع الآيات القرآنية، والتوقف عن تفسير ما تبقى منها يقتضي تعطيل الكثير من الأحكام؛ فلا بُدّ للمجتهد من الاستنباط[١].

ثالثاً: موارد استخدامه

من أهم استخدامات هذه المنهج هو محاولة تطبيق القرآن لتحصيل وتأييد ما أنست به نفس المفسر من اعتقادات ومسائل باطلة؛ كالأغراض الشخصية والمذهبية وغيرها[٢].

رابعاً: الآراء فيه

اختلفت الآراء في معنى تفسير القرآن بالرأي وحدوده:

فمنهم من قال إن المقصود بالتفسير بالرأي هو المنحصر في الآيات الفقهية: (أن معنى التفسير بالرأي: الاستقلال في الفتوى من غير مراجعة الأئمة عليهم السلام، مع أنهم قرناء الكتاب في وجوب التمسك ولزوم الانتهاء إليهم، فإذا عمل الإنسان بالعموم أو الإطلاق الوارد في

(١) أصول التفسير وقواعده ـ خالد عبدالرحمن العك: ص١٦٩.

(٢) بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم ـ محمود رجبي: ص٤٢.

الكتاب ولم يأخذ التخصيص أو التقييد الوارد عن الأئمة عليهم السلام كان هذا من التفسير بالرأي)[١].

ومنهم من قال إن التفسير الذي لا يرجع إلى القرائن المعتبرة ويقوم على البيانات الظنية والآراء الشخصية هو المعني بالتفسير بالرأي: (أن المراد بالرأي هو الاعتبار العقلي الظني الراجع إلى الاستحسان، فلا يشمل حمل ظواهر الكتاب على معانيها اللغوية والعرفية. وعلى هذا، فالمراد بالتفسير بالرأي: إما حمل اللفظ على خلاف ظاهره، أو أحد احتمالين ـ إذا كان هناك احتمالان أو أكثر ـ من دون دليل لرجحان ذلك في نظره، أو حمل اللفظ على المعنى اللغوي، والعرفي في بادئ الرأي، دون الأخذ بنظر الاعتبار القرائن النقلية والعقلية)[٢].

ومنهم من قال إن التفسير بالرأي هو تبرير ما ينتحله الشخص من معتقدات ومسائل بتطبيق آيات القرآن عليها: (أن يعمد قوم إلى آية قرآنية، فيحاولون تطبيقها على ما قصدوه من رأي أو عقيدة أو مذهب

(١) البيان ـ السيد أبو القاسم الخوئي: ص٢٨٨.

(٢) فرائد الأصول ـ الشيخ الأنصاري: ج١ ص١٤٢.

أو سلك؛ تبريراً لما اختاروه في هذا السبيل، ولم يقصدوا تفسير القرآن)[١].

ومنهم من قال إن حصر معاني القرآن بما توصل إليه من دليل يعتبر من نوع التفسير بالرأي: (إذا دلَّ الدليل عنده على معنى من معاني القرآن، وقال: (هذا المعنى يدل عليه كذا)، وهو عنده أنه دليل ذلك، غير متكلف له لغرض له في ذلك ولا غير، عالم بأنه دليل ذلك المعنى؛ فقد جاز له ذلك بشرط ألا يحصره فيما علم، فيقول: (ليس للآية معنى غير هذا). وأما إذا حصر فهو ممن يفسر القرآن برأيه)[٢].

خامساً: إلماعة مقتضبة في هذا المنهج

تحميل الفرد آراءه الشخصية على معاني القرآن وجعلها المعيار والمحك، أو توظيف الآيات لغرض تأييد مدعاه، أو غيرها مما تم ذكره؛ هو بلا شك من التفسير المذموم.

وقد بلغ عدد الروايات التي تذم ذلك نحو عشر روايات أو أكثر بقليل؛ وبالرغم من تفاوت بعض العبارات والكلمات بينها إلا أنها

---

(١) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ـ محمد هادي معرفة: ج١ ص٦٩.

(٢) أجوبة مسائل الآخوند الملا حسين الكرماني "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج ص٣٥٧.

تجتمع على مضمون واحد وتتحد في القصد[١]، وهو ذم هذا المنهج، والتحذير من الخوض في زماره، ورد جميع ما فيه؛ سواء كان طريقة أو نتيجة. ومن جملتها:

روي عن النبي الأعظم محمد ﷺ، أنه قال: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «من فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر»[٣].

وقال النبي الأعظم محمد ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[٤].

وقال النبي الأعظم محمد ﷺ: «قال الله ـ جل جلاله ـ: ما آمن بي من فسر برأيه كلامي، وما عرفني من شبهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني»[٥].

---

(١) راجع/ تفسير العياشي ـ محمد العياشي: ج١ ص٢٩ـ٣٠. وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ص٢٨ت٢٩ـ٣٠ـ١٤٩. البرهان في تفسير الميزان ـ السيد هاشم البحراني: ج١ص٥. بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص١٠٧ـ١١٣ب١٠.

(٢) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ج٤ ص١٠٤ ح١٥٤.

(٣) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج١/ المقدمة ص٥.

(٤) التوحيد ـ الشيخ الصدوق: ص٩١ ب٤/ تفسير قل هو الله أحد إلى آخرها ح٥.

(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص١٠٧ ب١٠/تفسير القرآن بالرأي وتغييره ح١.

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»[١].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي : ج٨٩ ص١١٠ ب١٠/تفسير القرآن بالرأي وتغييره ح١٣.

المطلب الخامس:

التفسير والتأويل

كثيراً ما يحصل الخلط بين مصطلح التفسير ومصطلح التأويل، ليس عند الباحثين فقط ؛ بل وحتى عند المختصين من أهل الفن، وفي هذا المطلب سوف نتطرق إلى رفع ولو جزء قليل من الإبهام في هذه المسألة.

مما لا يخفى أن مصطلح التفسير ذُكر في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]، أما مصطلح التأويل فقد ذُكر في سبعة عشر موضعاً[2] منها:

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[3].

وفي قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[4].

وفي قوله: ﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان: (٣٣).

(٢) استخدم القرآن مصطلح التأويل في سبعة عشر موضعاً: سورة آل عمران: (٧)، وسورة النساء: (٥٩)، وسورة الأعراف: (٥٣)، وسورة يونس: (٣٩)، وسورة يوسف: (٢١ـ٢٣ـ٣٧ـ٤٤ـ٤٦ـ١٠٠ـ١٠٢)، وسورة الإسراء: (٤٦)، وسورة الكهف: (٧٨ـ٨٤).

(٣) سورة آل عمران: (٧).

(٤) سورة الأعراف: (٥٣).

(٥) سورة يوسف: (٣٦).

والتأويل لغة:

قال الطريحي: (التأويل: إرجاع الكلام وصرفه عن معناه الظاهري إلى معنى أخفى منه، مأخوذ من آل يؤول، إذا رجع وصار إليه. وتأول فلان الآية أي نظر إلى ما يؤول معناه)[١].

وقال ابن منظور: (هو من آلَ الشيءُ يَؤُول إلى كذا، أي رَجَع وصار إليه، والمراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ)[٢].

وقال الراغب: (التأويل من الأوّل أي الرجوع إلى الأصل، ومنه الموئل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً)[٣].

فحاصل الأقوال اللغوية في مصطلح التأويل هو الرجوع إلى ما يرجع إليه أصل الشيء.

والتأويل اصطلاحاً:

عُرّفَ بعدة تعريفات أخذت كلماتها عدة أنحاء، ومنها:

---

(١) مجمع البحرين ـ الطريحي: ج٥ ب/ ما أوله ألف ص٣١٢.

(٢) لسان العرب ـ ابن منظور: ف/الهمزة ص٣٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني: مادة (أول) ص٣١.

قال الشيخ أبو علي الطبرسي: (هو رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر)[١].

وقال العلامة الطباطبائي في معنى التأويل: (أنّ الحقّ في تفسير التأويل، إنّه الحقيقة الواقعيّة التي تستند إليها البيانات القرآنية من حُكم أو موعظة أو حكمة، وأنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ؛ وإنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب)[٢].

فيبدو واضحاً ـ في ضوء تبنّينا لما سبق من تعاريف ـ إن التأويل لا ينطبق على مصداق التفسير الذي هو بيان المفاد الاستعمالي لآيات القرآن، وكشف مقاصده سبحانه وتعالى من الآيات استناداً إلى قواعد الأدب العربي وأصول المحاورات العقلائية[٣]؛ بل هو أخص في المعنى من التفسير؛ لأنه يتعلق بالمقاصد المستورة التي لا تحيط بها شبكات الألفاظ كما قال العلامة الطباطبائي.

---

(١) مجمع البيان ـ الطبرسي: ج١ ص١٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج٣ ص٤٩.

(٣) راجع تعريف التفسير فيما سبق.

ولكن مصطلح (التفسير) ومصطلح (التأويل) استعملا بشكل مترادف عند أكثر قدماء المفسرين، خصوصاً في بداية صدر الإسلام، ثم انصرفا إلى الاستعمالات الخاصة بعد أن أخذت عملية البحث العلمي تفرض جانب التخصصية في مصطلحاتها[١].

وما يشهد على ترادفهما ما أورده:

أولاً: أهل اللغة

قال ابن منظور: (التفسيرُ والتأويلُ والمعنى واحدٌ)[٢].

وقال الجوهري: (التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء)[٣].

وقال الفيروزآبادي: (أوّل الكلام تأويلاً: دبّره وقدره وفسّره)[٤].

ثانياً: أهل الاصطلاح

قال الرازي: (التأويل هو الكشف والبيان)[٥].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج٥ ص٣٢٣.

(٢) لسان العرب ـ ابن منظور: ج٥ ص٥٥.

(٣) الصحاح ـ الجوهري: ج٤ ص١٦٢٧.

(٤) القاموس المحيط ـ الفيروزآبادي: ج٣ ص٣٣١.

(٥) تفسير الرازي ـ الرازي: ج٧ ص١٨٨.

وقال السيد محمد باقر الحكيم: (إن المراد بالتأويل هو: تفسير معنى اللفظ، والبحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام، ويتجسد به من صورة ومصداق)[١].

غير أن هذه الشواهد ليست تامة في نهوضها بدعوى ترادف المصطلحين؛ لأن التباين بينهما واضح الظهور في مصاديق المعنى، فهو وإن كانت هناك بعض المعاني التي تلتقي بينهما إلا أن ذلك لا يعني ترادفهما التام[٢].

(١) علوم القرآن ـ السيد الحكيم: ص٢٣١.

(٢) انظر/علم الإمام للسيد كمال الحيدري: ص٣٥٠. فيه تفصيل شامل لرد القول بالترادف.

الفرق بين التفسير والتأويل

إن من أهم إعجازات النص القرآني التي تجعله في مواكبة مستمرة لبيان كل شيء وفي كل زمن (أي: جريانه)؛ إمكان انطباق نصه الواحد على مصاديق متعددة، وفي أزمنة مختلفة، هذا بالإضافة إلى المصداق المخصوص الذي تضمن نزول الآية.

فمثلاً: قد يكون النص نازلاً في خصوص مصداق واحد ويجري شأنه على مصاديق عامة عديدة حينما تنطبق جزئياته عليهم، والعكس.

وقد يكون مصداق النص في الماضي وينطبق على مصاديق مستقبلية.. وهكذا.

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام - في أقسام آيات القرآن -: «ومنه ما لفظه خاص، ومنه ما لفظه عام محتمل العموم، ومنه ما لفظه واحد ومعناه جمع، ومنه ما لفظه جمع ومعناه واحد، ومنه ما لفظه ماضٍ ومعناه مستقبل، ومنه ما لفظه على الخبر ومعناه حكاية عن قوم آخر، ومنه ما هو باق محرف عن جهته»[1].

---

(١) بحار الأنوار- المجلسي: ج٩٠ ص٤ ب١٢٨/ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في أصناف القرآن.

فما يجعل النص القرآني حيوياً ومنتعشاً احتواؤه على ألفاظ بإمكان معانيها الانطباق على مصاديق عديدة.

أي: إن بها أكثر من وجه واحد محتمل في دلالاتها.

فقد قال النبي الأعظم محمد ﷺ: «القرآن ذو وجوه»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام ـ لعبدالله بن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج ـ: «لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون؛ ولكن حاججهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً»[٢].

ويطلق أغلب المفسرين على وجه المصداق الظاهر الذي تضمن سبب النزول بالتنزيل[٣]، أما انطباقه على غيره من المصاديق التي تضمنها باطن النص القرآني فيطلقون عليه بالتأويل.

---

(١) ميزان الحكمة ـ الريشهري: ج٣ ص٢٥٣٥ ح٣٣٢٢.

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٣ ص١٣٦ خ٧٧.

(٣) تنزيل القرآن ليس من باب العلوية والسفلية كما ذُكر في اللغة: (النزول في الأصل، هو انحطاط من علوٍّ، يقال نزل عن دابته ونزل في مكان كذا: حطّ رحله فيه)[المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني: مادة (نزل) ص٤٨٨]؛ أي: إن القرآن كان في مكان عالٍ وفُقد منه حينما أنزله الله سبحانه وتعالى إلى مكان أسفل منه؛ بل تنزيل القرآن هو من باب التجلي؛ أي: إن نزوله لم يفقده شيء من وجوده في رتبته السابقة، كنزول الأسرار من خزانته، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[سورة الحجر: (٢١)]، فهي باقية في رتبتها الوجودية؛ وإلا للزم فقدانها من تلك الرتبة. فالمعنى اللغوي للنزول لا يتوافق مع معنى نزول القرآن الحقيقي، فهو نازل محفوظ في رتبته كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[سورة الرعد: (٣٩)].

ولذا قيل إن (التفسير [هو] بيان ما يحتمله اللفظ احتمالاً ظاهراً، والتأويل [هو] بيان ما يحتمله اللفظ احتمالاً باطناً)[١].

فقد قال النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام: «ستقاتل بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام ـ حينما سُئل عن معنى الرواية: «ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن» ـ:

«ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن يجرى كما يجرى الشمس والقمر، كما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣]، نحن نعلمه»[٤].

فأول تدشين للآية هو تنزيلها (الظاهر)، وانطباقها على المصاديق هو تأويلها (الباطن).

---

(١) كشكول الأحسائي ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٢٦٨.

(٢) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ج٤ ص٨٧ ح١٠٧.

(٣) سورة آل عمران: (٧).

(٤) بصائر الدرجات ـ الصفار: ج٣ ص٢١٦ ب٧/ في الأئمة أنهم أعطوا تفسير القرآن الكريم والتأويل ح٧.

وعلى ذلك، فالتأويل يقابل التنزيل لا التفسير، وهذا واضح البيان في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ومنه ما هو على خلاف تنزيله، ومنه ما تأويله في تنزيله، ومنه ما تأويله قبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله»[١].

فوظيفة التفسير الكشف والإبانة عن الظاهر أو الباطن، بمعنى أنه مصطلح أعم يجمعهما[٢].

أما مصلح (التأويل أخص من التفسير بلا إشكال؛ لأن التفسير من فسر، وهو والسفر بمعنى واحد، أي: كشف القناع، ويحصل ذلك ببيان أول مرتبة من مراتب معاني اللفظ بخلاف التأويل)[٣].

ولذا يقال حين الكشف عن المعنى الظاهر: تفسير الظاهر، ويقال: حين الكشف عن المعنى الباطن: تفسير الباطن، وأيضاً يقال حين الكشف عن التأويل: تفسير التأويل.

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٠ ص٤ ب١٢٨/ ما ورد عن أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ في أصناف القرآن.

(٢) انظر/ مقدمة جامع التفاسير ـ حسين الراغب الأصفهاني: ص٤٧.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ـ السيد عبد الأعلى السبزواري: ج٥ ص٨٦ـ٨٧.

وهذا هو الظاهر من استعمال بعض أعلام المفسرين للنصوص القرآنية: كالشيخ الأوحد قدس سره، والسيد كاظم الرشتي قدس سره، والعلامة الطباطبائي[١].

طبعاً هذا في الوجه العام المشهور عند جميع المفسرين، من أن عملية التفسير تضم مصطلحين أساسيين هما: الظاهر (التنزيل) لبيان المفاد الاستعمالي لآيات القرآن، والباطن (التأويل) لكشف المقاصد الإلهية الحقيقة المستورة[٢].

أما عند العرفاء الذين التصق بهم مصطلح التأويل أكثر من غيرهم من المفسرين للقرآن فالأمر مختلف تماماً، حيث إن مصاديق الظاهر والباطن المعروفة عند عامة المفسرين، هما في الحقيقة من مصاديق فروع الأقسام الأساسية لعلمية التفسير عندهم، التي هي: الظاهر، والباطن، والتأويل[٣].

---

(١) استعمل الشيخ الأوحد قدس سره ذلك (تفسير الظاهر، تفسير الباطن، تفسير التأويل) في عدة مواضع من كتبه مثل: الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد": ج٨ ص٨٦. واستعمل السيد كاظم الرشتي قدس سره ذلك، في تفسير آية الكرسي: ج١ ص١٣٠. واستعمل العلامة الطباطبائي ذلك في كتابه الميزان في تفسير القرآن: (أنّ الحقّ في تفسير التأويل) ج٣ ص٤٩.

(٢) بحوث في منهج تفسير القرآن الكريم ـ محمود رجبي: ص١٩.

(٣) سوف يتبين ذلك بشكل واضح في حين ذكر أقسام التفسير عند العرفاء لاحقاً.

وعلى أي حال، فالظاهر عند عامة المفسرين هو مصداق من مصاديق أخرى للظاهر عند العرفاء، والتأويل هو كذلك مصداق من مصاديق أخرى عندهم. وسوف يأتي بيان التفسير وأقسامه عند العرفاء في المطلب القادم؛ ليتضح الأمر بصورة أكبر.

المطلب السادس:

تفسير القرآن عند العرفاء

لا تقف نصوص القرآن عند حقائق عالم الشهادة، بل تتضمن حقائق علوية واقعة وراء هذا العالم الكثيف، وما اختزالها في قوالب الألفاظ إلا مراعاة لمستوى فهم الإنسان بعدما نزل من عالمه البعيد؛ فالكشف عن تلك الحقائق العلوية هو أمر يتعدى قوالب الألفاظ. وسوف نتطرق في هذا المطلب لفهم ذلك في تفسير العرفاء وأقسامه.

ينبغي قبل التطرق لهذا الأمر التذكير بنقطة هامة ذكرناها في مطاوي المباحث السابقة وهي: إن العرفاء[1] الذي انتهجوا نهج محمد وآله ـ صلوات الله عليه وعليهم ـ في سلوكهم وإثبات نتائجهم يعتقدون بكل ما وصل إليه عامة المفسرين الشيعة من حجية الظاهر، ولزوم القرائن العقلية والنقلية، وغيرها من مصادر وأدوات وضوابط في علمية التفسير[2].

ولكنهم لم يكتفوا بحد الوقوف عند السائد والمألوف من ظواهر النص القرآني (التنزيل)؛ بل حاولوا الغوص في عمقه، واستنفاذ طاقاته الكامنة لاستكناه المعاني المستترة في بوطنه (التأويل).

ولما كان من مقتضى التأويل كشف مساحات واسعة من المعاني العميقة للنص قد تكون جديدة بالنسبة لغيرهم، كما قال أمير المؤمنين

---

(١) جميع ما سيُذكر في هذا الأمر واقع في بيان العملية التفسيرية والتأويلية في منهج المدرسة التكاملية التي أرسى قواعدها الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره، وسار عليها تلامذته من بعده ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ، وقد خصصناه بنهج هذه المدرسة لرفع ما ينسب إليها من إشكال في تأويل النص الديني من ناحية، وللتأسيس لذلك من ناحية أخرى.

(٢) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٨٦.

عليه السلام ـ في خبر الزنديق المدعي للتناقض في القرآن ـ: «فإنه رب تنزيل يشبه بكلام البشر وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر»[١]؛ استنكر عليهم البعض ما توصلوا إليه من نتائج، وحكموا على جميعها ـ لما غابت حقائقها عن أذهانهم ـ بالشطحات والزندقات، وأنها من نوع التفسير بالرأي غير المستند إلى دليل[٢].

والحق أن كل ذلك قد تم مع مراعاة عدم إغراق النص بمعان وإيحاءات لا تمت بصلة إلى المعنى المراد أو ما يقاربه؛ بل ارتكزت عملية تفسيرهم على الأمور ذات الصلة بالقرآن، وبالأصول المرتبطة به أيضاً؛ حتى إنهم لضمان إحكام علميتهم التفسيرية بجميع أقسامها وضعوا شروطاً لمعرفة بواطن وأسرار النص، ومنها:

(١ـ ألا يكون [التفسير] مخالفاً للظاهر والصورة، ومنافياً لما يعتقده العوامّ من المسلمين والمؤمنين، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أقرّهم على ذلك، وما غشّهم، وما أضلّهم عن السبيل، نعوذ بالله منه؛ لأنه الهادي إلى السبيل، والنور الذي يذهب بظلمة الضلال والشكّ، بل أقرهم على الهدى، وهداهم إلى صراط السويّ. لكنهم لما كانوا لا يعرفون

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص١٠٧ ك/ القرآن ب١٠/تفسير القرآن بالرأي ح٢.

(٢) أصول التفسير وقواعده ـ الشيخ خالد عبدالرحمن العك: ص٢١٠.

الحقائق، ولا يدركون الدقائق، وما تصل أفهامهم إلى المطالب العليّة العالية، فألبسوا عليهم السلام تلك الدقائق لباس الباطن والصورة، وألقوها عليهم، بحيث إذا اعتقدوا بالظاهر اعتقدوا بالباطن، لكن لا عن بصيرة)[١].

(٢ـ ألا يخالف العقول السليمة، فإن العقول من أظلة عقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأشعته، والشعاع لا يخالف المنير)[٢].

(٣ـ ألا يخالف العالم من الآفاق والأنفس، فإنه صفة تعرف الحق للخلق بالتكوين، والقرآن صفة تعرف الحق للخلق بالتدوين، والكتاب التدويني لا يخالف الكتاب التكويني، فإذا وجدت المخالفة، فاعلم أن ما فهمت ضلّة من عقلك، وسفه من رأيك، ما أصبت الحق البتة)[٣].

(٤ـ ألا يخالف الأحاديث والروايات، فإن أهل البيت عليهم السلام ما قصروا في التبليغ والأداء، وذكروا كل ما يحتمله الناس، بجميع أقسامهم، من البواطن والأسرار، فنبهوا على البواطن في مواضع

(١) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٣٨ـ١٣٩.

(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٤٢.

(٣) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٤٢.

بالتصريح، وفي الأخرى بالإشارة، وفي الأخرى بالتلويح، ولذا ورد في الحديث أنه: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة»[١]. إياك إياك وأن تأول القرآن، أو تكلم فيه بحسب الباطن، وليس لك سند من الحديث والرواية، لأنك جاهل لا تعلم القرآن ولا تفهم الآيات، فإن التفسير بالرأي ـ أي بما لم يكن له سند من الحديث ـ من قبيل الهذيان والزندقة لا يصغى إليه)[٢].

(٥ـ أن يكون الرجل المؤول بالقرآن يعرف نوع الاعتقاد في توحيد الله وصفاته، وما يصح عليه ويمتنع عليه، ونوع ما يصح به الاعتقاد في أفعاله، وفي أوامره ونواهيه، وفي مراداته من عبادته، ونوع الحكمة، والصنع والتكاليف، ونوع حكمة الإيجاد، والقدر والبداء، والمنزلة بين المنزلتين.. وما أشبه ذلك. ويعرف النبوة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، والإمامة لأهل بيته عليهم السلام، ونبوة الأنبياء، ووصاية الأوصياء عليهم السلام، وأحوال التكاليف، والموت والبرزخ، وأحوال الآخرة، ولو باطلاع على نوع علم المسألة.

٦ـ فإذا وصل الشخص إلى هذه الرتبة بالعلم العياني القطعي

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٥٩ ك/فضل العلم ب/الرد إلى الكتاب والسنة.. ح٤.

(٢) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٤٣.

الضروري جاز له ذلك أيضاً ؛ لأنه إذا لم يعلم نوع علم هذه المسألة ـ التي أول الكتاب عليها ـ بالعلم القطعي العياني لا البرهاني جاز أن يقول: (هذا ما لا يُريد الله سبحانه)، وإن علم نوع هذه المسألة بالعلم البرهاني القطعي ؛ لأنه لا يجوز أن يكون هذه المسألة خارجة بمخصص من مانع أو مقتضى أقوى، وإنه لم يره بخلاف العلم العياني، فإن صاحبه يُشاهد كل فرد من أفراد هذا النوع في محله على ما هو عليه، أو أنه لم يره فإن رآه رآه)[1].

(١) أجوبة مسائل الآخوند ملا حسين الكرماني "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٣٤٥.

أقسام تفسير القرآن عند العرفاء

وأما بالنسبة لأقسام التفسير لدى العرفاء، قال السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره: (أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وتأويلاً، وللظاهر ظاهر، وله ظاهر إلى سبعة، وللباطن - وهو أمير المؤمنين عليه السلام - باطن، وباطن باطن، وباطن باطن باطن، إلى سبعة. وللتأويل تأويل، وتأويل تأويل، إلى سبعة، ولباطن التأويل باطن، وباطن باطن، إلى سبعة)[١].

فأما الظاهر: (فهو الذي ذكره المفسرون على ظاهر اللغة)[٢].

و(أما ظاهر الظاهر: فهو أن تأخذ مادة الكلمة من غير ملاحظة الوضع اللغوي، وتصرف فيها بما شئت على النهج المروي عن أهل البيت عليهم السلام)[٣].

مثل: في معنى ميثاقاً: العقد، وغليظاً: ماء الرجل (المني) في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَا مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[٤]، فعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب،

---

(١) تفسير آية الكرسي - السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٢٤.

(٢) الرسالة القطيفية "تراث الشيخ الأوحد" - الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٢٤.

(٣) تفسير آية الكرسي - السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٣٤.

(٤) سورة النساء: (٢١).

عن أبي أيوب، عن يزيد العجلي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَخَذْنَا مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال: «الميثاق هي الكلمة التي عقد بها النكاح وأما قوله: غليظاً فهو ماء الرجل يفضيه إلى امرأته»[١].

ومثل: في معنى الخير: الصحة والغنى، والشر: المرض والفقر، في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢]، روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن أمير المؤمنين عليه السلام مرض، فعاده إخوانه، فقالوا كيف تجدك، يا أمير المؤمنين؟ فقال: بشر. فقالوا: ما هذا كلام مثلك. فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فالخير: الصحة والغنى، والشر: المرض والفقر»[٣].

وأما الباطن: (فهو أن تلاحظ الصورة العربية كما في الظاهر، وتلاحظ التقديم والتأخير كما في الظاهر، حرفاً بحرف، لكن تقصد منه المعنى الباطن الذي لا يكون مدلوله على خلاف ما يعرفه أهل الظاهر)[٤].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٥ ص٥٦١ ك/ النكاح ب/النوادر ح١٩.

(٢) سورة الأنبياء: (٣٥).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٧٨ ص٢٠٩ أبواب الجنائز ب٢/آداب المريض وأحكامه.. ح٢٥.

(٤) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٣١.

مثل: في المعنى الباطن للصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيم﴾[١]، هو أمير المؤمنين عليه السلام، فعن علي بن إبراهيم: حدثني أبي، عن حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، قال: «هو أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ ومعرفته، والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله تعالى: ﴿وإِنَّه فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾»[٢].

ومثل: في معنى يس في قوله تعالى: ﴿يس﴾[٣] هو النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فعن الجلودي، عن محمد بن سهل، عن الخضر بن أبي فاطمة، عن وهب بن نافع، عن كادح، عن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن علي عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿سَلامٌ عَلَى آلْ يَاسِين﴾[٤]، قال: (يس) محمد، ونحن آل يس»[٥].

وأما باطن الباطن: فإنه من أسرار العرفاء التي لم يتكلموا به، وتكتموا عليه لعدم احتمال عمق معانيه الباطنية؛ حتى إن العامي

---

(١) سورة الحمد: (٦).

(٢) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج٤ سورة الزخرف ص٨٤٥ ح١/٩٥٦٥.

(٣) سورة يس: (١).

(٤) سورة الصافات: (١٣٠).

(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٦ ص٨٧ ب٦/ أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم وعللها.. ح١١.

ليكفر لو سمع بها، ولا يحتمله ولا يعلمه إلا أصحاب الأفئدة الذين قطعوا مراتب السلوك في معرفة الله سبحانه وتعالى[١]، فلنعرض عن بيانه لأننا حقيقة لسنا من أهله[٢].

(٣) الرسالة القطيفية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٢٣.

(٤) ذكر الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي قدس سره أن تفسير باطن الباطن موجود في تفسير الباطن للقمي [الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٨٧].

معاني التأويل عند العرفاء

وأما التأويل عند العرفاء فله ثلاثة معان:

المعنى الأول: (تصرف كلاماً عن ظاهره إلى معنى آخر لم يرد منه ظاهراً)[١]، (ولا يُلاحظ فيه تمام الكلام اللغوي)[٢]، (بل تأخذ بعض الكلام مجرداً عن ملاحظة ارتباطه بما قبله، أو بما بعده.. لأنك إذا لاحظتها مع ذلك، لا يفيد المعنى.. وهذا المعنى عام كلي، لا يتخصص بشيء دون شيء)[٣].

وقد قيد هذا النوع من التأويل بعدم ملاحظة الكلام اللغوي، أي عدم ملاحظة السياق العام للآية أو السورة بل يأخذه الكلام مجرداً عمّا قبله وبعده؛ لقاعدة روائية وضعها الإمام الصادق عليه السلام في قوله لجابر: «يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لينزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه»[٤].

---

(١) الرسالة التوبلية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٨ ص٨٦.

(٢) الرسالة القطيفية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٢٢.

(٣) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٢٥ـ١٢٦.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: ج١ المقدمة ص٥ ح١١/١١.

بل إن كل حرف في القرآن يمكن تأويله على وجوه، كما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي أن علياً عليه السلام مرَّ على قاضٍ فقال: «هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟

فقال: لا.

فقال: هلكت وأهلكت، تأويل كل حرف من القرآن على وجوه»[١].

وأن يكون عام كلي لا يتخصص بشيء دون شيء آخر[٢]، يرجع أيضاً إلى قاعدة روائية قالها الإمام الباقر عليه السلام حينما سئل عن معنى هذه الرواية: (ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن)، فقال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن يجرى كما يجرى الشمس والقمر كما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣] نحن نعلمه»[٤].

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٩ ص٩٥ ب٨/ أن للقرآن ظهراً وبطناً.. ح٤٩.

(٢) هذه تسمى قاعدة الجري، سوف نذكرها لاحقاً.

(٣) سورة آل عمران: (٧).

(٤) بصائر الدرجات ـ الصفار: ص٢١٦ ب٧/ في الأئمة عليهم السلام أنهم أعطوا تفسير القرآن... ح٧.

مثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾[١]، أي: كلما أراد أهل الضلال إطفاء نور محمد وآله عليهم السلام أهلكهم الله عزوجل، فعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾ قال: «كلما أراد جبار من الجبابرة هلكة آل محمد قصمه الله»[٢].

ومثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾[٣]، أي: استغناء الناس بالعلوم والمعارف إذا خرج القائم عجل الله فرجه، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ في خطبة تسمى المخزون ذكر فيها من أحداث الرجعة ـ: «ثم يسير إلى مصر فيصعد منبره، فيخطب الناس فتستبشر الأرض بالعدل، وتعطي السماء قطرها، والشجر ثمرها، والأرض نباتها وتتزين لأهلها، وتأمن الوحوش حتى ترتعي في طرق الأرض كأنعامهم، ويقذف في قلوب المؤمنين العلم فلا يحتاج مؤمن إلى ما عند أخيه من علم، فيومئذ تأويل هذه الآية: ﴿يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾»[٤].

---

(١) سورة المائدة: (٦٤).

(٢) تفسير العياشي ـ العياشي: ج١ ص٣٣٠ ح١٤٨.

(٣) سورة النساء: (١٣٠).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٣ ص٨٦ ب٢٩/ في الرجعة ح٨٦.

المعنى الثاني: (يراد به ما كان في العالم الإنساني، من الأحكام القرآنية، لأن الإنسان الصغير هو نسخة العالم الكبير، وفيه ما في العالم.

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[١]

والأحكام القرآنية في الظاهر في الإنسان الكبير، ولك أن تؤولها في الإنسان الصغير، إذ كل ما فيه فيه أيضاً، وكذا في الإنسان الوسيط، أي المولود الفلسفي، إذ كل ما فيه فيه أيضاً فيطابق.

مثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾[٢]، هذا خطاب في التأويل للعقول، يعني أيها العقول، ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: النفوس الأمارة بالسوء، أي لا تجعلوها صديقة لكم، وتحبونها، وتفعلون بمقتضاها، ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ أي: تطمئن في طاعة الله سبحانه، ولا تريد الشر، وتصير تابعة للعقل)[٣].

---

(١) ديوان أمير المؤمنين عليه السلام - الطباع: ص٧٣.

(٢) سورة البقرة: (٢٢١).

(٣) تفسير آية الكرسي - السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٢٦-١٢٧.

ومثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[١] أي: كل شيء مخلوق له اعتباران: اعتبار من ربه وهو مادته، واعتبار من نفسه وهو ماهيته[٢].

المعنى الثالث: (ما كان المؤوّل إليه، ويؤل الأمر إليه، وهو الذي يرجع الأمور، وتعود إليه)[٣]، فهو كالأول إلا أنه تفسير باطن[٤].

مثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ سِرًّا وعَلانِيَةً﴾[٥]، هو أمير المؤمنين عليه السلام، عن ابن بابويه، قال: حدثنا محمد بن عمر بن محمد الجعابي، قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن عبد الله بن محمد بن العباس الرازي التميمي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني سيدي علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وذكر عدة أحاديث، ثم

---

(١) سورة الذاريات: (٤٩).

(٢) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٧.

(٣) تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٢٩.

(٤) الرسالة القطيفية "تراث الشيخ الأوحد" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٩ ص٣٢٢.

(٥) سورة البقرة: (٢٧٤).

قال: ـ قال: «نزلت ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهارِ سِرًّا وعَلانِيَةً﴾ في علي»»[١].

ومثل: في تأويل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْن﴾[٢]، العينان: هما النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، واللسان: هو أخيه ووصيه أمير المؤمنين عليه السلام، والشفتان: هما الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام، فقد روى الحسن بن أبي الحسن الديلمي في تفسيره حديثاً مسنداً يرفعه إلى أبي يعقوب الأسدي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْن ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْن﴾ قال: «العينان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واللسان أمير المؤمنين عليه السلام، والشفتان الحسن والحسين عليهما السلام ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن﴾ إلى ولايتهم جميعاً، وإلى البراءة من أعدائهم جميعاً»[٣].

---

(١) البرهان في تفسير الميزان ـ السيد هاشم البحراني: ج١ ب/ فضل آية الكرسي ص٥٥١ ح٢/١٥٠٧.

(٢) سورة البلد: (٨-٩).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٤ ص٢٨٠ ب٦٥/ تأويل سورة البلد فيهم عليهم السلام ح١.

المطلب السابع:

أصالة قواعد التفسير

بغض النظر عما ورد في علم تفسير القرآن من قواعد وضعها العلماء لتكون كالآلة في التوصل إلى المعنى الحقيقي للنص القرآني، فالعمل بها أمر مرغوب إن كانت في ذاتها ومقدماتها ونتائجها مطابقة لقولهم عليهم السلام، وفي هذا المطلب سوف نتعرف على أصالة القاعدة وأهميتها في العملية التفسيرية.

من المؤكد أن استعمال القواعد للوصول إلى الكشف الحقيقي عن معاني الأشياء يُعد من لوازم الأمور المنهجية المورثة بقطع[1] المعنى المُخرَج، وإعطاء القاعدة الصورة المطمئنة عند التطبيق يحتاج إلى تحقق أركان أساسية، ومنها انتزاعها الصحيح من أصولها لا من أصول غيرها.

وبالرغم من انشغال أصحاب العلوم بأهمية القواعد في ضبط علومهم إلا أن العديد منهم أهمل كيفية انتزاعها من الأصل، أو صياغتها المبرزة لها من عالم الاعتبار والتدوين إلى عالم الثبوت والتكوين[2].

ولو تفحصنا العلم الذي نحن بصدده في هذا المبحث ـ علم تفسير القرآن ـ، فإننا أمام واحد من تلك العلوم التي لم يُذكر فيه إلا شذرات

---

(١) للقطع معنيان: أحدهما ما يقطع الاحتمال كالمحكم والمتواتر، والثاني ما يقطع الاحتمال الناشئ عن دليل كالظاهر والنص والخبر المشهور. ويطلق العلماء على الأول بعلم اليقين، وعلى الثاني بعلم الطمأنينة. [كشاف اصطلاحات الفنون ـ التهانوي: ج٣ ب/القاف ف/العين ص٥٣٨].

(٢) متشابه القرآن ـ القاضي عبدالجبار الهمداني: ص١٠.

من قواعده الأصيلة المتناثرة في متون الكتب، التي لو جُمعت فكميتها المحدودة لا يمكنها النهوض في تكوين الصورة المستقلة للعلم نفسه.

نعم، بعض (المفسرين والباحثين في علوم القرآن من العصور الغابرة والأيام الماضية إلى يومنا هذا تعرضوا لبيان قواعد التفسير في خلال مباحثهم التفسيرية أو أبحاث العلوم القرآنية، أما تأليف كتاب مستقل في هذا الفن، فهو مما لم يعتنوا به في الأعصار الماضية)[١]، ولم يستوف حقه المطلوب في عصرنا الحاضر[٢].

من هنا ما زالت التفاسير العديدة والمتنوعة في حقل تراثنا الفكري تفتقر إلى الظهور الواضح للقواعد الأصيلة التي بُنيت عليها، والآلية الصريحة التي شكلت شخوصها، وهذا ما جعلنا نعيش على تفاسير قرآنية متماثلة منذ قرون؛ لأن العملية التفسيرية باتت شبه متوقفة بسبب عدم توفر القواعد المختصة الجلية التي تساعد على بنائها.

---

(١) قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة ـ محمد فاكر الميبدي: ص٤١.

(٢) هناك من كتب في قواعد التفسير: كالميرزا محمد بن سليمان التنكابني في كتابه توشيح التفسير في قواعد التفسير والتأويل، وهناك من اشتملت تفاسيره على بعض القواعد كمقدمة تفسير المجمع للطبرسي، والبيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي؛ ولكن يبقى المزج بينها وبين القواعد الأصولية والفقهية واللغوية والمنطقية وغيرها واضح، ويبقى إبهام الآلية التي تفتقرها القاعدة الكلية بيّن في أغلبها.

ولعل السبب راجع إلى أمور عديدة منها:

١ـ الاكتفاء باستخدام قواعد العلوم الأخرى في العملية التفسيرية، كقواعد المباحث الفقهية والأصولية واللغوية والمنطقية والفلسفية، وغيرها[١]؛ سواء كان ذلك من باب القاعدة المشتركة بين العلوم، أو من باب تأثر شخصية المفسر بالاتجاه العام الذي يمثله وبالظروف الزمانية والمكانية، فحتماً أن عملية تفسير الذي عاش في العصور الماضية تختلف عن عملية تفسير الذي يعيش اليوم في زمن العولمة، وعلمية تفسير صاحب الإتجاه العقلي تختلف عن صاحب الاتجاه العرفاني، وعلمية تفسير المفسر التجزيئي تختلف عن عملية تفسير المفسر الموضوعي وهكذا.[٢]

٢ـ الخلط العجيب بين الأصول والقواعد والضوابط والمبادىء (عند السنة والشيعة)، فبعضهم وضع ضوابط وأطلق عليها قواعد، والعكس[٣]، وآخر وضع أحكام قرآنية كلية وأطلق عليها قواعد[٤].

---

(١) قصة التفسير ـ د. أحمد الشرباصي: ص١١١. قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة ـ محمد فاكر الميبدي: ص٤٦.

(٢) المدرسة القرآنية ـ السيد محمد باقر الصدر: ص٢٨ـ٣٠.

(٣) وضع الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات فهرساً بعنوان القواعد في التفسير، ذكر تحته أربعاً وأربعين قاعدة يُرى في أن أغلبها ضوابط وليست قواعد.

(٤) وضع عبدالرحمن السعدي في كتابه القواعد الحسان لتفسير القرآن سبعين قاعدة لم تكن قواعد تفسيرية؛ بل أحكام قرآنية وشروط للتفسير.

ومن المعلوم بأن هناك فرقاً كبيراً بينها وإن تداخلت في بعض الحيثيات:

فالأصل: (عبارة عمّا يُبنى عليه غيره، ولا يبنى هو على غيره)[١]، فهو جذر العملية التفسيرية ومنشؤها ومرجعها الذي بُنيت عليه، كالجذر بالنسبة إلى بناء البيت، وهو ما يعرف بالمصدر الذي قام عليه المنهج كله.

والقاعدة: (هي ما قعد من البناء على الأرض واستقر عليه الباقي)[٢]، فهي التقعيد الذي تم بنائه على الأصل ـ ولا عكس ـ؛ أي أنها بمثابة الجدران والحيطان للعملية التفسيرية.

والضابطة: (ضبط الشيء حفظه بالحزم، والرجل ضابط؛ أي: قوي شديد حازم)[٣]، فهي من تحفظ العملية التفسيرية بقوة وحزم وتمنعها عن الخطأ، وهي الشروط التي توضع لها لحفظها، وهي بمثابة المواصفات التي تُؤخذ بحذر في عملية بناء البيت.

---

(١) التعريفات ـ الجرجاني: ص١٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة الطباطبائي: ج١ ص٢٨٥.

(٣) لسان العرب ـ ابن منظور: ج٤ ص٧٥٦.

والمبادىء أو الأسس: (هي التي يتوقف عليها مسائل العلم)[١]، أو هي مبتدأ الشيء[٢]، فهي أول انطلاقة لتشييد العلمية التفسيرية؛ أي: ما يمثل الابتداء والجزء الأول من تشييد بناء البيت.

وعلى أي حال، لا بُدّ أن يكون هناك قواعد خاصة لتفسير النص القرآني تحمل خصوصيات العلم نفسه، ولا بُدّ أن تنشأ من صميم ذاتياته لضمان جدوة الانتفاع بها؛ أي: تنتزع من أصولها لا من أصول غيرها.

فكما أن لعلم النحو قواعد خاصة به تضمن الوقوف على المعنى الصحيح، وللمنطق قواعد خاصة به كذلك، وجميعها ناشئة من صميم موضوع العلم نفسه؛ فيجب أن يكون لعلم تفسير القرآن قواعد خاصة به أيضاً نابعة من أصوله.

وعملية تنشئة أو وضع تلك القواعد الموصلة لمعنى النص القرآني لا تكون قطعية إلا إذا تم انتزاعها من الأصول المعصومة التي وضعها أهل البيت عليهم السلام؛ لأن الأصول مقننة من وحي السماء كما ورد عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنما علينا أن نلقي إليكم

(١) التعريفات ـ الجرجاني: ص٨٥.

(٢) لسان العرب ـ ابن منظور: ج٤ ص١٢٢.

الأصول وعليكم أن تفرعوا»[١]، وكما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٢]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾[٣]؛ فلا مجال للعقل المستقل أو غيره فيها إلا التأييد والتنظيم لا التشريع.

فإذا تم ذلك بالصورة المشروعة؛ فلن تتقدم علمية التفسير فحسب، بل ستجتمع المعاني وتتحد بعد أن تنختم مادة النزاع في معنى النص الصحيح، وستغيب مجموعة التفاسير المحملة بأطنان الآراء والأفكار التي لا تغني ولا تسمن من جوع من ساحة التراث الإسلامي؛ لأن كلام الله عزوجل وكلامهم عليهم السلام يجمعهم ويوحدهم[٤].

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢ ب٢٩/علل اختلاف الأخبار.. ص٢٤٥ ح٥٤.

(٢) سورة المائدة: (٤٨).

(٣) سورة الشورى: (١٣).

(٤) شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٨٨.

انتزاع قواعد علم التفسير من أصولها

واحدة من جملة النفوس المطمئنة التي توفر لديها الجرأة الكافية للقيام بعملية الانتزاع الأصيلة لقواعد علم التفسير، وإبرازها في صورة ممنهجة ضمن ضوابط وأسس محكمة تتلاءم مع متطلبات العصر الحالي، ويكون لها أثر المساهمة في إعادة دفع عجلة تفسير النص القرآني من جديد، وتوحيد صفوف المعنى المراد من كلماته عزّ وجلّ، هو سماحة الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين[1].

فقد استندت عملية تفسيره للنص على قواعد تم بناؤها فوق جذر ما ورد عنهم عليهم السلام من أصول؛ أي: إنه حول النص الروائي إلى جذر، ثم انتزع منه قاعدة كلية انطلق منها في تقديم العينات المنهجية، في كيفية التطبيق والتكييف للنص القرآني خطوة بخطوة.

وأجدر ما يمكن أن يطلق على عمليته، هو محاولة إظهار ما كان بالقوة إلى ما بالفعل.

فمثلاً، من قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ومنه ما تأويله في تنزيله، ومنه ما تأويله قبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله»[2].

---

(١) تقدم التعريف عنه في مقدمة الكتاب.

(٢) بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٩٠ ص٤ ب١٢٨/ ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في أصناف...

انتزع قاعدة كلية في ما يخص معنى التنزيل والتأويل.

مفادها: إن ما في كتاب الله عزّ وجلّ، إما ما تأويله في تنزيله وهو المحكم المطابق لفظه لمعناه، أو تأويله قبل تنزيله وهو الحدث الذي وقع قبل نزول القرآن، أو تأويله مع تنزيله وهو الذي ذُكر معناه مع تنزيله، أو تأويله بعد تنزيله وهو الحدث الذي يحصل بعد نزول القرآن، أو ما تأويله حكاية في تنزيله؛ أي: جاء على لفظ الحكاية[١].

ومن قول الإمام الباقر عليه السلام: «ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن يجرى كما يجرى الشمس والقمر كما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء قال الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٢] نحن نعلمه»[٣]، انتزع قاعدة الجري[٤].

وهكذا مع باقي القواعد التي ذكرها في كتابه[٥].

---

(١) علم تفسير القرآن ـ السيد مرتضى جمال الدين: ص٢٤.

(٢) سورة آل عمران: (٧).

(٣) بصائر الدرجات ـ الصفار: ب٧/ في الأئمة عليهم السلام أنهم أعطوا تفسير القرآن الكريم وتأويله ص٢١٦ ح٧.

(٤) علم تفسير القرآن ـ السيد مرتضى جمال الدين: ص٣٨.

(٥) ذكر سماحة الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين في كتابه "علم تفسير القرآن" أكثر من ٢٥ قاعدة تم انتزاعها من رواياتهم عليهم السلام.

ولضمان سريان هذه القواعد الكلية على كل جزئية من جزئيات موضوعها من خلال الانطباق؛ اشترط استناد الدليل القطعي على كل معنى يتم الوصول إليه، ومن دونه تكون النتيجة من جملة التفسير بالرأي.

فمثلاً: إذا أردنا أن نقول بأن أحد الوجوه المحتملة في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، أنها في الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام التي ألزمها الله عز وجل على مخلوقاته، من حيثية النظر إلى التقوى استناداً إلى قاعدة الإيمان التي وضعها[٢]؛ فيجب أن يُستدل على أن التقوى هي الإيمان، وهي الولاية، من قول أبي عبدالله عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[٣]: «هو الإيمان»[٤]، ومن قول

(١) سورة الحجرات ـ الآية: (١٣).

(٢) انتزع الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين هذه القاعدة من نصوصهم عليهم السلام واصطلح عليها بقاعدة الإيمان، ومن جملة تلك النصوص: عن محمد بن عمرو بن غالب، عن محمد بن أحمد بن خيثمة، عن عباد بن يعقوب، عن موسى بن عثمان الحضرمي، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أنزل الله آية فيها (يا أيها الذين آمنوا) إلا وعلي رأسها وأميرها».[بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٥ ص٣٥٢ ب١٣/أنه عليه السلام المؤمن والإيمان.. ح٤٥.

(٣) سورة الفتح ـ الآية: (٢٦).

(٤) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ص١٥ ك/ الإيمان والكفر ب/الإخلاص ح٥.

النبي الأعظم محمد ﷺ: «كنت نائماً في الحجر إذ أتاني جبرئيل فحركني تحريكاً لطيفاً، ثم قال لي: عفا الله عنك يا محمد قم واركب، ففد إلى ربك، فأتاني بدابة دون البغل، وفوق الحمار، خطوها مد البصر، له جناحان من جوهر، يدعى البراق...

قال: ثم قيل لي: يا محمد، قلت: لبيك ذا العزة لبيك، قال: إني أعهد إليك في علي عهداً فاسمعه، قال: قلت: ما هو يا رب؟ فقال: علي راية الهدى، وإمام الأبرار، وقاتل الفجار، وإمام من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، أورثته علمي وفهمي، فمن أحبه فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني، إنه مبتلى ومبتلى به، فبشره بذلك يا محمد، قال: ثم أتاني جبرئيل عليه السلام قال: فقال لي: يقول الله لك: يا محمد ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، ولاية علي بن أبي طالب...»[1].[2]

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٨ ص٣٩٢ ب٣/ إثبات المعراج.. ح٩٨.

(٢) نلحظ بأن العملية التفسيرية هنا راعت منهج تفسير القرآن بالقرآن، حيث إن معنى التقوى في الآية المراد تفسيرها ظهر من معنى التقوى في الآية المستدل بها. ومنهج تفسير القرآن بالمأثور، حيث إن تحصيل المراد تم من خلال ما ورد عنهم في معنى التقوى في الآية. ومنهج تفسير القرآن بالعقل، حيث إن قوة العقل لم تطلق جزافاً من دون قيد بل تم توظيفها تبعاً للكشف عن النص وفي إطاره.

فإذا توفر الدليل القطعي على المعنى المتوصل إليه، يمكن أن يقال بأنه أحد وجوه المعنى في النص، ومن دون حصر.

وهكذا تستمر عملية استخراج المعاني في النص بتعاقب القواعد الملائمة عليه.

فمثلاً: من قاعدة الخير والشر[1]، يمكن أن نستخرج معنى آخر من النص السابق، وهو من حيث النظر إلى أن التقوى خير أمر الله عزّ وجلّ به، فهي في محمد وآله ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ، وفي محبيهم.

بدليل قول النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عزّ وجلّ قسم الخلق قسمين: فجعلني في خيرهما قسمة، وذلك قوله عزّ وجلّ في ذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلثاً، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَة ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُون﴾[2] وأنا من السابقين، وأنا خير السابقين،

---

(١) انتزع الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين هذه القاعدة من نصوصهم عليهم السلام واصطلح عليها بقاعدة الخير والشر، ومن جملة تلك النصوص: عن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «يا محمد إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا». [بحار الأنوار ـ المجلسي: ج٨٩ ب١٢/ تنوع آيات القرآن.. ص١١٥ ح٧.

(٢) سورة الواقعة ـ الآية: (٨ـ٩ـ١٠).

ثم جعل إلى ثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيل، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله جل ثناؤه ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً»[٢].

وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٣] قال: «الصادقون هم الأئمة والصديقون بطاعتهم»[٤].

ويمكن أن نستخرج معنى آخر من قاعدة الجنة والنار[٥]، وهو من حيث النظر إلى أن الجنة هي نتيجة التقوى، فهي في أهل الخير؛

---

(١) سورة الحجرات: (١٣).

(٢) الآمالي ـ الشيخ الصدوق: ص٧٣٠ ح١/٩٩٩.

(٣) سورة التوبة: (١١٩).

(٤) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ص٢٠٨ ك/ الحجة ح٢.

(٥) انتزع الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين هذه القاعدة من نصوصهم عليهم السلام واصطلح عليها بقاعدة الخير والشر، ومن جملة تلك النصوص: عن بن محمد، عن وهيب بن حفص، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن القرآن زاجر وآمر يأمر بالجنة ويزجر عن النار». [الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ص٦٠١ ك/فضل القرآن ح٩.

بدليل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ﴾[١].

إذاً، فأصالة القاعدة الكلية يضمن لنا الانطباق الكشفي على كل جزئية من جزئيات موضوعها، والانطباق يبرز لنا مظاهر الانتفاع بها؛ أي: يحقق صياغتها من عالم الثبوت إلى عالم الإثبات.

فإذا توفر المعنى الكلي في القاعدة، والانطباق الكشفي على جميع جزئياتها، والصياغة المبرزة لها، وانتماء موضوعها ومحمولها إلى علم واحد، وأيضاً تم اختبار صدقها من عدمها؛ تحقق لدينا أركان القاعدة الكلية، وكذلك قدرتها على الاستنباط[٢].

هذه الأركان هي التي جعلت القواعد التي انتزعها سماحة الأستاذ السيد مرتضى جمال الدين تحقق منظوراً ثابتاً في العملية التفسيرية، بالإضافة إلى الآلية العصرية التي اتبعها في طرح المادة العلمية.

وهي مما لا شك فيه، خطوة نحتاج لمثيلاتها في زمن نحن بأمس الحاجة فيه إلى الرجوع لفهم مراده ﷻ في القرآن.

---

(١) سورة آل عمران: (١٥).

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ـ التهانوي: ج٣ ص٥٠٦. كفاية الأصول في أسلوبها الثاني ـ الشيخ محمد باقر الإيرواني: ج٣ ص٢٧٩.

المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أصول البحث ـ الدكتور عبدالهادي الفضلي: قم ـ دار الكتاب الإسلامي.

٣ـ أصول التفسير وقواعده ـ الشيخ خالد عبدالرحمن العك: بيروت ـ دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

٤ـ أمالي الشيخ الصدوق ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ.

٥ـ آلاء الرحمن في تفسير القرآن ـ محمد جواد البلاغي: قم ـ مكتبة وجداني.

٦ـ الاحتجاح ـ أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي: النجف ـ مطابع النعمان، ١٣٨٦هـ.

٧ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ الشيخ محمد باقر المجلسي: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٨ـ بحوث في منهج تفسير القرآن ـ محمود رجبي: بيروت ـ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٩ـ بصائر الدرجات الكبرى ـ أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار: طهران ـ مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤هـ.

١٠ ـ البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي: بيروت ـ المكتبة العصرية، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

١١ـ البرهان في تفسير القرآن ـ السيد هاشم البحراني: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

١٢ـ البيان في تفسير القرآن ـ السيد أبو القاسم الخوئي: بيروت ـ دار الزهراء للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ.

١٣ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ـ السيد حسن الصدر: شركة النشر والطباعة العراقية.

١٤ـ تراث الشيخ الأوحد ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت ـ الأميرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

١٥ـ تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

١٦ـ تفسير به رأي ـ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: قم ـ مطبوعات هدف، الطبعة الثامنة ١٣٦٧ش.

١٧ـ تفسير المراغي ـ أحمد مصطفى المراغي: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي.

١٨ـ تفسير تسنيم ـ عبدالله جوادي آملي: قم ـ مركز نشر إسراء، ١٣٨٠ش.

١٩ـ تفسير الرازي ـ الفخر الرازي: الطبعة الثالثة.

٢٠ـ تفسير الصراط المستقيم ـ السيد حسن البروجردي: قم ـ مؤسسة أنصاريان، ١٤١٦هـ.

٢١ـ تفسير العياشي ـ أبي نصر محمد بن مسعود السلمي السمرقندي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٢ـ تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا: بيروت ـ دار المعرفة، الطبعة الثالثة.

٢٣ـ توشيح التفسير في قواعد التفسير والتأويل ـ الشيخ محمد بن سليمان التنكابني: طهران ـ مؤسسة شمس الضحى الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٢٤ـ التبيان في تفسير القرآن ـ أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي ـ تحقيق/ أحمد حبيب العاملي: بيروت ـ دار الهدى.

٢٥ـ التحقيق في كلمات القرآن الكريم ـ الشيخ حسن المصطفوي: طهران ـ مؤسسة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٦ـ التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ـ محمد هادي معرفة ـ (فارسي) ترجمة/علي خياط: مشهد ـ منشورات ذوي القربى، ١٤١٨هـ.

٢٧ـ التفسير والمفسرون ـ محمد حسين الذهبي: دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٩٧٦م.

٢٨ـ التعريفات ـ الشريف علي بن محمد الجرجاني: بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.

٢٩ـ التفسير الكاشف ـ محمد جواد مغنية: بيروت ـ دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة ١٩٨١م.

٣٠ـ التمهيد في علوم القرآن ـ محمد هادي معرفة: قم ـ مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٧هـ.

٣١ـ التوحيد ـ أبي جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه القمي (الصدوق): قم ـ جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

٣٢ـ جامع السعادات ـ ملا محمد مهدي النراقي ـ تحقيق/ السيد محمد كلانتر: الطبعة الرابعة.

٣٣ـ جامع التفاسير ـ حسين الراغب الأصفهاني: الكويت ـ دار الدعوة، ١٤٠٥هـ.

٣٤ـ حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي.

٣٥ـ خلاصة علم الكلام ـ الدكتور عبدالهادي الفضلي.

٣٦ـ دروس في علم الأصول ـ السيد محمد باقر الصدر: بيروت ـ دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٣٧ـ دراسات في تفسير النص القرآني ـ مجموعة من المؤلفين: بيروت ـ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٣٨ـ ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ د. عمر الطباع: بيروت ـ دار الأرقم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٣٩ـ رسائل آل طوق القطيفي ـ الشيخ أحمد بن الشيخ صالح آل طوق القطيفي: بيروت ـ شركة المصطفى ﷺ لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٤٠ـ الرسائل الأحمدية ـ الشيخ أحمد بن الشيخ صالح آل طعان البحراني القطيفي: قم ـ دار المصطفى لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٤١ـ سير تطور تفاسير الشيعة ـ سيد محمد علي أيازي: طهران ـ مؤسسة نمايشكَهاهي فرهنكَي، ١٣٦٩ش.

٤٢ـ شرح العرشية ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤٣ـ شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤٤ـ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ـ أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري: بيروت ـ دار العلم للملايين، الطعبة الرابعة ١٤٠٧هـ.

٤٥ـ علم تفسير القرآن ـ السيد مرتضى جمال الدين.

٤٦ـ علم الإمام ـ أبحاث السيد كمال الحيدري ـ تقرير/ الشيخ علي حمود العبادي: قم ـ دار فرقد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٤٧ـ عوالي اللآلي ـ الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي جمهور الأحسائي: قم المقدسة ـ دار سيد الشهداء، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٨ـ فتح البيان فيما روي عن علي من تفسير القرآن ـ السيد مصطفى الحسيني الطباطبائي: سوريا ـ دار الجسور الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤٩ـ فرائد الأصول ـ الشيخ الأنصاري: قم ـ مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٩هـ.

٥٠ـ قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة ـ محمد فاكر الميبدي: إيران ـ المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٥١ـ الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ـ الشيخ محمد الصادقي: قم ـ مطبعة أمير، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٥٢ـ الفوائد المدنية ـ المولى محمد أمين الأسترآبادي: إيران ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٥٣ـ قصة التفسير ـ د. أحمد الشرباصي: بيروت ـ دار الجيل.

٥٤ـ القاموس المحيط ـ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: بيروت ـ المؤسسة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى.

٥٥ـ القرآن في الإسلام ـ العلامة محمد حسين الطباطبائي ـ تعريب/ السيد أحمد الحسيني.

٥٦ـ القواعد الحسان لتفسير القرآن ـ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: الرياض ـ مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٥٧ـ كفاية الأصول ـ الشيخ محمد كاظم الآخوند الخرساني: قم ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة التاسعة ١٤٢٥هـ.

٥٨ـ كفاية الأصول في أسلوبها الثاني ـ الشيخ باقر الإيرواني: النجف ـ مؤسسة إحياء التراث الشيعي، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

٥٩ـ كشكول الشيخ الأحسائي ـ الشيخ أحمد الأحسائي: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٦٠ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ محمد علي بن علي بن محمد التهانوي: بيروت ـ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٦١ـ الكشوف في الإعجاز القرآني وعلم الحرف ـ الشيخ رضوان سعيد فقيه: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٦٢ـ الكافي ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني: بيروت ـ دار الأضواء ١٤٠٥هـ.

٦٣ـ لسان العرب ـ جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٦٤ـ مباني وروشهاي تفسيري ـ الأستاذ عميد زنجاني: طهران ـ وزارة فرهنكَك وإرشاد إسلامي، الطبعة الرابعة.

٦٥ـ متشابه القرآن ـ القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني: كوبري القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٦٦ـ مجمع البحرين ـ الشيخ فخر الدين الطريحي: قم ـ مرتضوي، ١٣٦٢ش.

٦٧ـ مجمع البيان في تفسير القرآن ـ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: طهران ـ المكتبة الإسلامية، الطبعة الخامسة ١٣٩٥هـ.

٦٨ـ مسند الإمام الرضا عليه السلام ـ الشيخ عزيز الله العطاري: المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام، ١٤٠٦هـ.

٦٩ـ مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ت ـ أبي الحسن العاملي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٧٠ـ مناهج التفسير واتجاهاته ـ محمد علي الرضائي ـ تعريب/ قاسم البيضائي: بيروت ـ مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، الطبعة الثالثة ٢٠١١م.

٧١ـ منهج البحث الأدبي ـ د. علي جواد الطاهر: بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة ١٩٨٨م.

٧٢ـ المنهج الأثري في تفسير القرآن الكريم ـ هدى جاسم محمد أبو طبرة: إيران ـ مكتبة الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٧٣ـ مناهج المتكلمين في فهم النص القرآني ـ د. ستار جير حمود الأعرجي: العراق ـ المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية (العتبة العباسية)، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ.

٧٤ـ مواهب الرحمن في تفسير القرآن ـ السيد عبدالأعلى السبزواري: بغداد ـ مطبعة الديوان، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

٧٥ـ ميزان الحكمة ـ محمد الريشهري: دار الحديث، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٧٦ـ المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم ـ الدكتور محمد حسين علي الصغير: بيروت ـ منشورات دار المؤرخ العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٧٧ـ المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء ـ محمد بن المرتضى (الكاشاني): إيران ـ دفتر انتشارات إسلامي، الطبعة الثانية.

٧٨ـ المخازن ـ الميرزا حسن كَوهر ـ تحقيق/ عبدالجليل الأمير: بيروت ـ جامع الإمام الصادق، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٧٩ـ المدخل إلى مناهج البحث العلمي ـ د. محمد قاسم: بيروت ـ دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٨٠ـ المدرسة القرآنية ـ السيد محمد باقر الصدر: إيران ـ لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر، ١٤٢١ هـ.

٨١ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني: طهران ـ المكتبة المرتضوية، ١٣٣٢ش.

٨٢ـ المقرر في شرح منطق المظفر ـ رائد الحيدري: قم ـ مطبعة شريعت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٨٣ـ المناهج التفسيرية ـ الشيخ جعفر السبحاني: قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ.

٨٤ـ الميزان في تفسير القرآن ـ العلامة محمد حسين الطباطبائي: قم ـ مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، ١٣٩٣هـ.

٨٥ـ نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: بيروت ـ دار المعرفة.

٨٦ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ـ محمد بن الحسن الحر العاملي: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

الفهـــــرس

إهداء ٥
مقدمة السيد مرتضى جمال الدين ٧
مقدمة المؤلف ١١

المطلب الأول: معجزة القرآن الخالدة ٢١
المطلب الثاني: المعصوم عليه السلام هو المفسر للقرآن ٣١
حاجة القرآن إلى المعصوم عليه السلام ٣٤
أيهما أفضل أهل البيت عليهم السلام أم القرآن؟ ٣٨
حال فهمنا في تفسير القرآن ٤٨
المطلب الثالث: تعريف التفسير ونشأته ٥١
التفسير في اللغة ٥٣
التفسير في الاصطلاح ٥٤
مقترح في تعريف مصطلح التفسير ٥٦
نشأة علم التفسير ٦٠
المطلب الرابع: مناهج تفسير القرآن ٦٥
المنهج لغة واصطلاحاً ٦٨
الأول: منهج تفسير القرآن بالقرآن ٧١

الثاني: منهج التفسير الروائي أو الأثري ٨٩
الثالث: منهج التفسير العقلي أو الاجتهادي ٩٩
الرابع: منهج التفسير الإشاري ١٠٦
الخامس: منهج التفسير بالرأي ١١٩
المطلب الخامس: التفسير والتأويل ١٢٥
التأويل لغة واصطلاحاً ١٢٨
الفرق بين التفسير والتأويل ١٣٢
المطلب السادس: تفسير القرآن عند العرفاء ١٣٩
شروط تفسير القرآن عند العرفاء ١٤٢
أقسام التفسير لدى العرفاء ١٤٦
معاني التأويل عند العرفاء ١٥٠
المطلب السابع: أصالة قواعد التفسير ١٥٧
الحاجة لقواعد أصيلة لعلم التفسير ١٥٩
انتزاع قواعد علم التفسير من أصولها ١٦٥
المصادر والمراجع ١٧٣
الفهرس ١٨٩

فيما أنا أجد في بيان درس (علم التفسير) , وحيث وصلت إلى نهاية فصله الأول, لاح لي طالب إنساب بهدوء من بين الجموع, صامتاً يستمع بخشوع ... حتى إذا طالبت طلبتي بتطبيقات قرآنية على أساس قواعد أهل البيت عليهم السلام, فجاء بعضهم بورقة أو ورقتين والمجد منهم بثلاث أو أربع , وإذا بفضيلة الشيخ إبراهيم القديم يأتي بمقالة مبسوطة, وعليها تقارير مسبوكة, وبقلم سيال يقطر عذوبة, مقرراً درسي بجميل أسلوبه, مضيفاً له شروحات مدروسة, فعرفت فيها نبوغه.

ثم أعطاني كتاباً (مبادئ علم تفسير القرآن), فوجدت فيه سلاسة العبارة, ورجاحة الفكرة, وانسيابية السياق ..

من كلمات المراجع